مدخل إلى
التربية النفسية والإيمانية

الدكتور عبد الله الشارف

أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي

جامعة القرويين - كلية أصول الدين

تطوان - المملكة المغربية

1436هـ - 2015م

مدخل إلى
التربية النفسية والإيمانية

الدكتور عبد الله الشارف

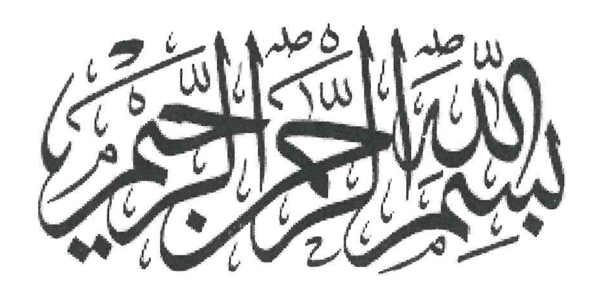
أستاذ الفلسفة والفكر الإسلامي

جامعة القرويين - كلية أصول الدين

تطوان - المملكة المغربية

1436هـ - 2015م

الكتـــاب: مدخل إلى التربية النفسية والإيمانية
المـــؤلـــف : د. عبد الله الشارف
الطبعـــة : الأولــــــى
الهاتف: 34 42 70 0539
البريد الإلكتروني: Imp.tetouan@gmail.com
الطبـــع : مطبعــــة تطـــــوان
رقم الإيداع القانوني: 2015MO 2720
الترقيم الدولـــــي: 978-9954-35-969-3


بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

تعتبر النفس من الموضوعات الفكرية والفلسفية، التي شغلت عقول العلماء على مر العصور. بل إن معاول الفلاسفة والعباقرة، ومدعي الحكمة، قد تكسرت على صخور حقيقة النفس الشماء، وخارت قواهم من شدة البحث والتنقيب. كما أنهكهم الكبر والعجب والغرور، فحالت حجب النفس بينهم وبين المعرفة الصحيحة.

وغني عن البيان أن الجهل بالنفس من حيث؛ منزلتها وقيمتها والغاية من وجودها، ناتج عن الكفر أو الشرك، أو انحراف خطير في عقيدة التوحيد، أو الغفلة عن الله، واتباع الأهواء والشهوات وما أشبه ذلك.

ومن فضل الله على الناس ورحمته بهم، أن أرسل إليهم الرسل والأنبياء مبشرين ومنذرين، وداعين إلى الله، وإلى الصراط المستقيم. إذ لولا بعثة الرسل والأنبياء، لضل الناس وتاهوا، ولما اهتدوا إلى معرفة ربهم، ولا أنفسهم.

ومن هنا، كان الإيمان بالله هو المفتاح الوحيد، لفتح خزانة النفس والإطلاع على لآلئها وكنوزها .

إن الموضوعات التي يضمها هذا الكتاب، تتمحور حول مفهوم التربية في الإسلام وطبيعة العلاقة بين النفس والإيمان، انطلاقا من التصور الإسلامي؛ قرآنا وسنة وتراثا. ورغم أن معظم الموضوعات الواردة، تعلوها مسحة أدبية ذات طابع رقائقي، إلا أنها عالجت قضايا ومفاهيم نفسية وتربوية هامة؛ كقضية الانفعالات، أو الإرادة، أو الإيحاء الذاتي، أو مفهوم الذات، أو الفرح، أو الحزن، أو الخوف، أو الرجاء...

ثم إن موضوعات الكتاب، ترتبط أيضا بفضاء تربية النفس، وإصلاحها وتزكيتها، مع التركيز على بعض الأساليب، والطرق، والآليات العملية في هذا المجال.

ولقد اعتمدت في تحليل بعض الأفكار التربوية والنفسية، على آراء ثلة من علمائنا الأجلاء من أمثال؛ علي بن حزم، والراغب الأصبهاني، وأبي حامد الغزالي، وأحمد بن تيمية، وتلميذه محمد بن قيم الجوزية. وتبين لي أثناء البحث والدراسة، أن هؤلاء العلماء الفطاحل، سبقوا علماء الغرب في التأسيس والتقعيد لنظريات نفسية، وسلوكية، وتربوية، ذات مستوى علمي رفيع.

إن التربية الإسلامية جعلت من شخصية المسلم محورها الرئيس، حيث عملت على صياغتها صياغة متوازنة في الأبعاد العقلية،

والانفعالية، والاجتماعية، والإيمانية، والجسدية، واستنبطت من النصوص الشرعية الطريقة التي تناول بها الوحي موضوع الانفعالات والمشاعر والعواطف الإنسانية من حب، وخوف، وغضب، وحسد، وكبر، وتواضع، إلى غير ذلك من الانفعالات التي تتضمنها القصص القرآنية، أو المشاهد المتعلقة بالحياة الدنيوية، وما يكتنفها من أفراح وأقراح، أو صور الحوارات بين الأنبياء وأقوامهم، أو مشاعر مرتبطة بالوعد والوعيد. وبعبارة أخرى فإن القرآن أعظم كتاب يضم أصدق وأكمل وصف للانفعالات البشرية، كما يقدم أحسن علاج لأمراضها وانحرافاتها.

وللعبادات تأثير في سلوك المسلم وفي كل حركاته وسكناته، وقوله وعملِه، وسرِّه وعلنِه. واقتصار العبادة على مجرَّد الشعائر التي تؤدَّى في أوقات محدَّدة، وأماكن معينة، يعد مفهومًا ضيقًا للعبادة، فالعبادة في الإسلام شاملة لكل جوانب الحياة؛ لأن الدين كله داخل في العبادة، إذ يتضمن معناه الخضوع والذل لله - عزَّ وجلَّ - والعبادة تقوِّي وتُعزِّز العقيدة الإسلامية في نفس المسلم.

والإنسان تحصل له الإنسانية بقدر ما تحصل له العبادة التي خلق من أجلها، فمن قام بالعبادة حق القيام فقد استكمل الإنسانية، ومن رفضها فقد انسلخ عن الإنسانية.

فالأصل الأول للتربية؛ الإيمان بالله وعدم الشرك به، وغرس الإيمان في النفس البشرية يكون قبل غرس القيم التربوية الأخرى المحمودة؛ لأن الإيمان بمكان القلب من الجسد، إذا فسد القلب فسد الجسد كله.

وللإيمان الكامل آثار تربوية عظيمة في حياة الفرد والمجتمع، فالإيمان هو الذي يُهيئ النفس الإنسانية دائمًا للرِّضا والأمن وللعمل الجاد المُثمِر، وعلى المربِّي المسلم أن يربط كل جوانب التربية بهذا الأصل؛ لما له من أهمية كبرى في حياة الإنسان النفسية، وتوحد نوازعه وتفكيره وأهدافه وتجعل كل عواطفه، وسلوكه وعاداته قوى متضافِرة مُتعاوِنة ترمي كلها إلى تحقيق هدف واحد هو الخضوع لله وحده، والشعور بألوهيته وحاكميته ورحمته وعلمه لما في النفوس وقدرته وسائر صفاته.

والمتأمل في التربية الربانية للجيل الأول يجد أنها كانت تركز على أعمال القلوب، وزيادة الإيمان في القلب قبل تشريع العبادة، فكما قيل بأن الإسلام قد بدأ "مشاعر، ثم شعائر، ثم شرائع"، ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله.

وهذه الصلة في الحقيقة هي منهج التربية كله، تتفرع منه جميع التفريعات وتعود في النهاية كلها إليه، وإيجاد الصلة بين القلب البشري وبين الله، الصلة الدائمة التي تدفع القلب إلى الرجوع لله في كل لحظة، واستشارة دستوره في كل أمر، هو القاعدة الرئيسة للتربية الإسلامية، التي بها يتم كل شيء، ومن دونها يُصبح كل شيء خواء، وهذا فارق حاسم بين منهَج التربية الإسلامية ومناهج التربية غير الإسلامية.

وبالتالي فإن التربية الإسلامية يجب أن تُبنى على أساس الإيمان بكل أركان الدين إيمانًا واضحًا متميزًا، وكل تربية تُهمل ركنًا من أركان الإيمان تصبح تربية ناقصة شوهاء، لا فائدة منها؛ إذ كيف يعمل بتعاليم القرآن من لا يؤمن بمن أنزل القرآن، وكيف يؤمن بالقرآن من لا يؤمن بالملائكة؟! وقسْ على هذا.

والإيمان بالله هو الموجِّه للسُّلوك والضابط له والمتصل اتصالاً وثيقًا بالأعمال الصادرة من الإنسان، فإن التربية الإسلامية تربط دائمًا بين العمل والسلوك، وهناك آيات كثيرة تقرن الإيمان بالعمل، وكل ما قيل عن الإيمان تندرج تحته العبادة، فالعبادة هي غذاء للإيمان وللروح.

وختمت هذا البحث بذكر أهمية السنة النبوية في بناء المنهج التربوي والنفسي، وإعداد شخصية المسلم الصالح، مع الإشارة إلى أن الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، ومحبته واقتفاء أثره، من اللبنات الأساسية في بناء صرح التربية النفسية والإيمانية.

الفصل الأول:

في المنهج التربوي الإيماني

التربية في التصور الإسلامي

منهج الإسلام في تربية الانفعالات

التخويف النفسي عند الحارث المحاسبي

بين الذكر والإرادة

التربية الإيمانية وبناء الذات

درس تربوي إيماني

شيخ التربية ضروري أم غير لازم؟

التربية في التصور الإسلامي

للتربية في الإسلام مصدران؛ القرآن والسنة. فالقرآن لديه أسلوب رائع في تربية الفرد على الإيمان بوحدانية الله وباليوم الآخر، وهو يربي عقل الإنسان وعاطفته، متمشيا مع الفطرة في البساطة وعدم التكلف، وتكفي الإشارة إلى أن القرآن قد بدأ نزوله بآيات تربوية تحث على القراءة والتعلم؛ "اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم" (سورة العلق)، كما أن الله تعالى أقسم مرات عديدة ليقرر أن النفس الإنسانية قابلة للتربية والتزكية والسمو.

وتحتوي السنة في الميدان التربوي على فائدتين جليلتين؛ الأولى تتعلق بتوضيح المنهج التربوي الإسلامي الوارد في القرآن الكريم، والثانية تدور حول استنباط أسلوب تربوي من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، مع أصحابه ومعاملته لزوجاته وأولاده وأقربائه وجيرانه، وكذا غرس الإيمان في نفوس المسلمين. ولا غرو أن يجد الدارسون في شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم، مربيا عظيما وقدوة لا مثيل لها. وهكذا فقد وضع كثير من العلماء الأجلاء تصانيف التعاليم التربوية النبوية، منها: كتاب "الأدب المفرد" للإمام محمد إسماعيل البخاري،

وكتاب "الترغيب والترهيب" لعبد العظيم المنذري، "وتحفة المودود في أحكام المولود" للإمام ابن قيم الجوزية .... إلى غير ذلك من المصنفات الكثيرة.

وللتربية الإسلامية أسس أهداف ووسائل، والأسس ثلاثة أنواع: فكرية وتعبدية وتشريعية.

وتشتمل الأسس الفكرية على مميزات التصور الإسلامي ونظرة الإسلام إلى الإنسان والكون والحياة. فالإنسان في نظر الإسلام مخلوق مختار ومريد وقادر على التعلم، كما أنه مكلف ومسؤول ومستخلف في الأرض. والكون في نظر الإسلام خاضع لله، وقائم على سنن ونواميس وضعها الخالق عز وجل، كمما أنه مسخر للإنسان الذي بنفسه يخضع في حياته لسنن اجتماعية ثابتة.

أما الحياة فقد نظر إليها الإسلام نظرة جديدة ملؤها الشعور بالمسؤولية، وتوجيه الدوافع إلى الغاية المثلى المتمثلة في الاستخلاف في الأرض، وإقامة العدل فيها. وحياة الإنسان كلها ابتلاء من الله منذ هبوط آدم اب البشر إلى الأرض، قال تعالى: "يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آيات فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون"

(الأعراف: 35 –36)، وقال أيضا (وابتغ فيما أتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا) (القصص: 77).

والقرآن يشتمل على آيات كثيرة تحذر الإنسان من الاغترار بالدنيا، والغفلة عن الهدف الذي وجد من أجله، وتحثه على العمل فيها بجد وطموح، مع التمتع بخيراتها في حدود الشرع، ثم الأخذ بأسباب القوة والعزة وتجنيد النفس، لمنازلة أعداء الفضيلة والخير ونصرة الحق.

وفيما يتعلق بالأسس التعبدية للتربية، فإنها تكمن في سلوك المسلم ومعاملاته، وهكذا يتجلى الأثر التربوي للعبادة في أمور كثيرة، منها أن العبادة في الإسلام تعلمنا الوعي الفكري الدائم، فما دامت كل أعمال المسلم عبادات يبتغي بها وجه الله ورضوانه، فإن وعيه الفكري يجعل منه إنسانا منطقيا ومنهجيا.

ومنها أنها، أي العبادات، تربي في المسلم روح الأخوة والترابط والتعاون، ذلك التعاون القائم على وعي منظم ومتين، وثقة بالنفس عظيمة، لا على طاعة عمياء لتيار سياسي، أو اتجاه فكري وفلسفي معين. ومنها أنه تربي نفس المسلم على العزة والكرامة وإباء الضيم، وعلى تمثل الفضائل السامية. أضف إلى هذا أن التربية القائمة على

العبادة الصحيحة، تظل دائما تزود الإنسان بشحنات روحية فريدة من نوعها، مستمدة من الثقة بالله وأمل في نصره وثوابه.

وناهيك عما تقوم به التوبة الصادقة من تطهير مستمر للنفس وتجديد لنشاطها وحياتها، قال تعالى: "وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون" (النور: 31)

وقد أثبت الطب النفسي الحديث، أن التوبة تشفي من كثير من الأزمات والأمراض النفسية، لأنها تعين على إعادة انسجام الإنسان مع نفسه ومع مبادئه ومثله العليا.

وتعتبر الشريعة الإسلامية الأساس العظيم للتربية الإسلامية، إذ هي بيان للعقيدة وللعبادة، ولتنظيم الحياة، ولتجديد وتنظيم جميع العلاقات الإنسانية. والمسلم المتفقه في الشريعة يربي ذهنه على التفكير المنطقي، عن طريق استنباط الأحكام. ولولا مرونة الشريعة الإسلامية وحيويتها وقدرتها المستمرة على العطاء، لما عرف عقل المسلم بالمرونة الدائمة والقدرة الفائقة على حسن الاستنباط والاستدلال.

وإذا علمنا أن الشريعة الإسلامية تدور أحكامها حول الضروريات الخمس: حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ العقل، وحفظ العرض، وحفظ

المال، استطعنا أن نتصور ما يترتب عن تلك الحماية والسهر من اثر تربوي بالغ في سلوك المسلم.

وتعتبر العقيدة الإسلامية العمود الفقري للشريعة، ذلك أن الإيمان بالله وبالملائكة، وبالكتب المنزلة، وبالرسل وباليوم الآخر وبالقدر، كل ذلك، كما أمر الله ورسوله، يعين المسلم على التحقق بالتربية الإسلامية الفاضلة. فعقيدة التوحيد المنبثقة عن الإيمان بالله ، تنظم حياة الإنسان النفسية، وتوحد نوازعه وتفكيره وأهدافه، وتجعل كل عواطفه وسلوكه تتمحور حول هدف واحد، هو الخضوع لله وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه.

والإيمان باليوم الآخر يربي عند المسلم الشعور الحقيقي بالندم على ما فات، واستشعار التفاؤل والرضا، وقطع دابر التشاؤم، والجرأة أمام الموت، أو أي مصاب آخر.

وفيما يتعلق بأهداف التربية الإسلامية، يمكن القول إنها أهداف بلغت في سموها وشرفها مبلغا لا مثيل له، ذلك أن الله خلق الكون لهدف معين، وأوجد الإنسان على الأرض ليكون خليفته، ويسخر له جميع ما في السموات والأرض. وجعل للحياة الدنيوية أجلا محددا ينتهي في وقت

يعلمه الله سبحانه وتعالى، ثم يخلق الله الإنسان خلقا جديدا ليحاسبه، فينعم على المحسن بالجنة ويدخل المسيء، الكافر النار.

ومن أبرز خصائص أهداف التربية الإسلامية؛ اصطباغها بالصبغة الدينية والخلقية، وشموليتها لكافة جوانب شخصية المتعلم، وكافة نواحي التنمية في المجتمع، والتوزان في اهتماماتها، ووضوحها، وخلوها من التناقض فيما بينها وبين وسائل تحقيقها، وواقعيتها وقابليتها للتطبيق، وتأكيدها للتغير المرغوب في السلوك وفي الحياة، ومراعاتها للفروق الفردية بين الأفراد والمجتمعات والثقافات، وديناميتها وقابليتها للتغير والتطور. وهذه الخصائص التي تمتاز بها أهداف التربية الإسلامية لا توضح فقط الطابع المميز لهذه الأهداف، بل تشير أيضا إلى أهم المبادئ التي تقوم عليها أهداف التربية الإسلامية، أو بعبارة أخرى إن تلك الخصائص تحمل في طياتها مجموعة من المبادئ المتفقة معها في المعنى، أذكر منها بإيجاز ما يلي:

1 ـ مبدأ الشمول:

يعني النظرة الكلية إلى الدين والإنسان والمجتمع والحياة. فالإسلام الذي تقوم عليه التربية الإسلامية، شمولي في نظرته واهتماماته. وتفسيره للوجود والكون والحياة يؤكد التصور الجامع بين الروح والمادة،

بين النفس والجسم، بين الفرد والجماعة، بين الدنيا والآخرة. ويهتم ببناء الفرد كما يهتم ببناء المجتمع، ويقدر مصالح المجتمع والفرد معا.

وهو كذلك ينظر إلى الأشياء نظرة كلية، ويطلب من المؤمنين به والناس عامة أن يتبنوا هذه النظرة الكلية في حياتهم، وفي تمسكهم بالديو. فلا يرضى لهم مثلا بالنسبة لأوامر الدين وتعاليمه، أن يقبلوا من الدين أشياء ويتركوا أشياء أخرى، كأن يقبلوا مثلا عباداته، ويتركوا معاملاته وأخلاقه، بل يوجب عليهم أن يأخذوا الدين ككل، ويربطوا بين أجزائه كلها في إطار واحد.

2 ــ مبدأ التوازن والاعتدال:

والتربية الإسلامية في أهدافها لا تقوم فقط على مبدأ الشمول، بل تقوم أيضا على مبدأ التوازن والاعتدال الذي يعني فيما يعني؛ الحرص على: تحقيق المرغوب بين جوانب النمو المختلفة في شخصية الفرد وحياته وفي حياة المجتمع، وتحقيق التوازن في إشباع الحاجات المختلفة للفرد والجماعة، وتحقيق التوازن بين مقتضيات الحفاظ على تراث الماضي، وحاجات الحاضر ومتطلبات التغلب على مشاكله، وحاجات المستقبل ومتطلباته، دون طغيان جانب على آخر، أو دون الاهتمام بجانب على حساب جانب آخر.

3 ـــ مبدأ الوضوح:

إن الإسلام الذي تستمد منه التربية الإسلامية مبادئها ومثلها وأهدافها، والذي يمتاز بشموليته ونظرته الكلية للحياة وبتوازنه ووسطيته واعتداله في مقاصده ومطالبه، ويمتاز أيضا بوضوح مبادئه وتعاليمه وأحكامه، يقدم الإجابات الواضحة للنفس الإنسانية والعقل البشري، في كل القضايا والمسائل، وإزاء كل التحديات والأزمات. ومن وضوح الإسلام تستمد التربية الإسلامية وضوح أهدافها ومناهجها وطرقها، ويعتبر مبدأ الوضوح من أبرز مبادئها، وأبرز الشروط التي ينبغي أن تتوفر في أهدافها، لأن وضوح الهدف يضفي معنى وقوة على التعليم، ويدفع إلى الانطلاق الواضح في سبيل تحقيقه، ويحول دون الاختلاف في تفسيره وتأويله.

4 ـــ مبدأ الواقعية وقابلية التطبيق:

إن الشريعة الإسلامية والتربية الإسلامية تقومان على مبدأ الواقعية والبعد عن الخيال والإسراف، والتخبط، وتسلكان في سبيل تحقيق مقاصدهما، منهجا علميا يناسب الفطرة ويلائم الظروف والإمكانيات المتاحة لكل من الفرد والمجتمع. ولم تكن مبادئ وأهداف الشريعة

الإسلامية والتربية الإسلامية مجرد شعارات تردد، أو مجرد مبادئ مثالية لا إمكانية لتطبيقها في واقع الحياة وفي دنيا الناس، بل كانت ولا تزال وستظل على الدوام، مبادئ وأهداف واقعية ممكنة التطبيق في عموميتها في كل زمان ومكان[1].

وهناك نوعان من الأهداف تسعى التربية الإسلامية إلى تحقيقها، وهي الأهداف الفردية والأهداف الجماعية.

وتدور الأهداف الفردية حول تكوين وبناء الشخصية المسلمة المتزنة والمتكاملة، روحيا وبدنيا وعقليا واجتماعيا. وبعبارة أخرى فإنها تدور حول إيجاد الفرد المسلم المسلح بالعلم والمعرفة، والمطلع على مشاكل عصره ومجتمعه، والمهذب في ذوقه، المدرك لحقوقه وواجباته، القائم بها أحسن قيام، والمتحمل لمسؤولياته نحو نفسه وأسرته ومجتمعه وأمته، بوعي وإخلاص وكفاءة.

أما الأهداف الاجتماعية للتربية الإسلامية فإنها ترتبط ببناء المجتمع الإسلامي، والنهوض به روحيا واجتماعيا وثقافيا واقتصاديا، كما تدور حول تحقيق نهضة علمية وثقافية في المجتمعات الإسلامية، على أسس

---

[1]- د. عمر محمد التومي الشيباني "فلسفة التربية الإسلامية" طرابلس، ليبيا 1985 ص 313 ـ 314 ـ 315.

ومبادئ الدين وقواعده الخلقية. وذلك عن طريق تشجيع التعليم، والدعوة إلى نبذ أسباب الجهل، ومكافحة الأمية والحث على ممارسة البحث العلمي والتأليف والترجمة، في مختلف مجالات الفكر والمعرفة، وإحياء التراث الفكري الإسلامي وتجديده.

كما يشكل تدعيم اللغة العربية الفصحى وحفظها من عوامل الضعف، هدفا من الأهداف الاجتماعية للتربية الإسلامية، وذلك باعتبارها لغة القرآن الكريم، والوعاء الأصيل للثقافة العربية الإسلامية. كما أنها تعتبر من أهم مظاهر الهوية الثقافية للمسلمين، وعنوان قوتهم وعزتهم، وأداة ربط حاضرهم بماضيهم.

ويدخل في إطار الأهداف الاجتماعية للتربية الإسلامية أيضا، بناء مجتمع إسلامي قوي موحد في صفوفه، يسوده الوفاق والوئام وحرية الفكر والعقيدة، والتسامح والشعور بالاعتزاز بالدين وتراث السلف الصالح، كما يدخل في إطارها تحسين الخدمات التعليمية في مجال التعليم، وتطبيق مبدأ التربية المستمرة مدى الحياة، ومبدأ التربية الذاتية، وكذا ربط التعليم بحاجات المجتمع، وإحداث التوازن بين التعليم النظري والتعليم التقني والمهني، وتشجيع الأخذ بأسلوب التخطيط التربوي.

وللتربية الإسلامية صنفان من الوسائل: صنف مادي أو بشري، وصنف معنوي. وينضوي تحت الأول كل من المسجد والأسرة والمدرسة، ويضم الثاني وسائل معنوية كالقصة والقدوة إلى غير ذلك. لقد كان أول عمل قام به الرسول صل الله عليه وسلم عند وصوله المدينة، بناء المسجد؛ محل العبادة والتشاور، وتلقي دروس الفقه والحديث. إن المسجد في صدر الإسلام كان ينهض بوظائف جليلة أعرض المسلمون اليوم عن معظمها، فقد كان منطلقا لجيوش التحرير، ومركزا تربويا يربى فيه الناس على الفضيلة وحب العلم.

إن المسجد عندما تتحقق فيه رسالته السامية التي وجد من أجلها، يغدو من أعظم المؤثرات التربوية في نفوس الناشئين، حيث يتقوى في باطنهم الشعور بعظمة المجتمع الإسلامي والاعتزاز برابطة الأخوة في الدين، ويتعلمون القرآن ويتلقون دروسا في الدستور الإسلامي، ويحصل لهم النمو الفكري والسمو الروحي.

والأسرة المسلمة وسيلة من أسمى الوسائل لتحقيقي التربية الإسلامية الرفيعة، وأعني بالأسرة المسلمة تلك التي التقى ركناها على تحقيق الهدف الذي من أجله شرع تكوين الأسرة. والطفل الذي ينشأ ويترعرع في بيت أقيم على تقوى من الله ورغبة في إقامة حدود الله، يتعلم من

أبويه ويقتدي بهما، فيكتسب بذلك مبادئ التربية الإسلامية دون ما أي عناء. إن المسؤولية العظمى ملقاة على عاتق الأبوين اللذين بتربيتهما الصحيحية لأبنائهما، يعملان على وقايتهم من الخسران والنار قال تعالى: "يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم و أهليكم نارا وقودها الناس والحجارة" (التحريم: آية 6).

وتعتبر المدرسة أيضا من أهم الوسائل الفعالة في إعداد النشء، ونشر التربية الإسلامية. ولقد كان المسجد أول مدرسة جماعية منظمة عرفها المسلمون، وظل يؤدي وظيفة العبادة والتربية الإسلامية، حتى كان عهد عمر بن الخطاب الذي أنشأ كتاتيب للأطفال، إلى جانب المسجد أو في بعض زواياه، وبقيت الحلقات العلمية تعقد في المساجد، حيث تدرس كتب الفقه والتفسير والحديث والنحو والطب، إلى أن استقلت الدويلات عن الخلافة العباسية، وبدأ البعض منها يبني مدارس للعلم يؤمها الطلاب.

"وكان نظام هذه المدارس داخليا يقوم على الانقطاع لطلب العلم، فكان في دمشق وحدها، مثلا، زهاء ثلاثمائة مدرسة في سفح جبل قاسيون. ما تزال آثار كثير منها على شكل قباب تشرف على بعض الحدائق العامة، هذا عدا المدارس التي كانت في قلب المدينة، كالمدرسة

الظاهرية التي بناها الملك الظاهر، والمدرسة النورية التي بناها نور الدين الزنكي. وبقى التعليم في هذا المدارس حرا لا مركزيا من حيث المناهج والمكتب والأساليب، مع ارتباطها ماليا بالدولة التي تجري لها الجرايات، وتخصص لها الأوقاف والهبات دون أن تقيدها بنظام معين أو مناهج محددة، ثقة منها بالعلماء الأفذاذ الذين كانوا يديرونها ويغدونها بالعلم. وبقى الأمر زهاء عشرة قرون، حتى جاء الاستعمار الغربي إلى بلادنا فعم فيها نظام المدرسة الموحدة والتعليم المركزي التابع لمركز العاصمة في البلاد، وللمستشارين الأجانب في الأقطار التي استعمرت عسكريا[2].

والوظيفة الأساسية للمدرسة في نظر الإسلام، هي تحقيق التربية الإسلامية بأسسها الفكرية والعقدية والتشريعية وبأهدافها، وعلى رأسها هدف عبادة الله وتوحيده والخضوع لأوامره وشريعته، وتنمية كل مواهب النشء، وقدراته على الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، أي صون هذه الفطرة من الزلل والانحراف، حذرا مما حذرنا منه رسول الله

---

[2] عبد الرحمان النحلاوي "أصول التربية الإسلامية وأساليبها" دار الفكر. ص 17.

صلى الله عليه وسلم عندما قال: "كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمسانه"(3).

وتعتبر المدرسة بحق أداة مكملة، لأن تربية النشء، تبدأ في أحضان أبويه، حيث يلقنانه مبادئ اللغة ومفاهيم الحياة الاجتماعية، وأساليب التعايش مع البيئة والتفاعل مع ظروف الحياة. ويغرسان في قلبه مبادئ الإيمان الصحيح. لذلك لا بد من إقامة تعاون صريح بين المنزل والمدرسة، وأن تخصص المدرسة جهازا لتنسيق الاتصال بالأولياء: آباء الطلاب وأمهات الطالبات. وهذه الوظيفة التربوية للمدرسة، إنما تتحقق على الوجه الأكمل حينما تتبنى مبدأ التواصي بالحق، وهو من أهم مبادئ التربية الإسلامية الاجتماعية، فتتعاون المدرسة مع المسجد والمنزل والمجتمع، ويكون هدف الجميع تحقيق العبودية لله وتطبيق شريعته، وتحقيق العزة والكرامة للأمة الإسلامية وأجيالها، والنصح لأولياء الأمور القائمين على الإذاعة والصحافة، وهي من أهم الوسائل المؤثرة في تربية الجيل بأسلوب غير مباشر.

وللوسائل المعنوية التي تعتمد عليها التربية الإسلامية، أثر بالغ في تربية النشء، وإعداده للقيام بالوظائف الاجتماعية المختلفة. ولعل القصة

---

(3)- المرجع السابق ص 148.

تكون من أبرز هذه الوسائل واسماها، فالقصة تشد الانتباه، وتنشط الفكر، وتحرك المشاعر، ويشعر المتلقي أو القارئ مهما كان سنه بأنه يعيش الحدث، ويتمثله إلى حد كبير. بل ويتخذ موقفا بناء على قناعة خاصة استلهمها من التجربة المتواجدة في القصة.

وتتميز القصة القرآنية عما سواها، بثبوت الوقائع المسرودة وعظمة الأداء المعجز، والأسلوب الفائق، والتصوير الفني الساحر والبديع. كما تختلف عن القصة الغربية المعاصرة، في كونها تقرر النتيجة أو العبرة صراحة، في حين أن القصة الغربية لا تهتم كثيرا بتبيان الهدف أو الغاية من القصة، وإنما تترك المتلقي يفهمها وحده أو يستنتج منها ما يشاء.

ولا يقل الحوار كوسيلة من وسائل التربية الإسلامية، أهمية عن القصة. والحوار القرآني أسمى أنواع الحوارات المؤثرة في النفوس، وهناك صنوف من الحوار القرآني منها الحوار الخطابي والتعبدي، فقد خاطب الله عباده في مواضع كثيرة؛ (يا أيها الذين آمنوا.....)، و كلما قرأ المؤمن هذا الخطاب أو سمعه لهج قلبه بالجواب يا رب. وكان النبي صل الله عليه وسلم في صلاته إذا مر بآية فيها تسبيح سبح أو سؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ، فكل ذلك مناجاة لله أشبه ما يكون بالحوار. ومنها الحوار الجدلي، وهو حوار يجري فيه نقاش أو جدال غايته إثبات

الحجة على المشركين للاعتراف بضرورة الإيمان بالله وتوحيده، والاعتراف باليوم الآخر وبرسالة محمد صل الله عليه وسلم، وببطلان آلهتهم وصدق أقوال الرسول صل الله عليه وسلم، كوصفه لما رأى، عندما عرج به إلى السموات العلى، كما في سورة النجم. ويربي الحوار الجدلي الحماسة للحق وتحري الصواب والرغبة في الحجة الدامغة، وهذا من العواطف الربانية التي يجب الحرص على تنميتها عند الناشئين. كما يربي عن طريق الإيحاء كراهية الباطل والأفكار الشركية والإلحادية، كذلك يربي العقل على التفكير السليم والوصول إلى الحقائق بأسلوب صحيح. وأهم مزاياه أنه يربي العقل على التفكير الموضوعي الواقعي والارتقاء بالحجج من الشهود المحسوس إلى المطلوب المغير.

وتعتبر القدوة وسيلة فعالة من وسائل التربية الإسلامية، لأن القدرة العملية اقوى وأشد تأثيرا من نشر المبادئ والأفكار، إذا يسهل مشاهدتها والتأثر بها والاقتداء بها وتقليدها.

ولقد كان الرسول صل الله عليه وسلم قدوة بشرية عملية وسط المسلمين الأول، فكان له الأثر الكبير في تعرف المسلمين على الإسلام نظريا وعمليا. ولأهمية القدوة العملية في الإسلام حذر الله المؤمنين من أن تخالف أفعالهم أقوالهم التي يدعون إليها، فقد قال تعالى: "يأيها الذين

آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون" (سورة الصف آية 2). فحسب الذين يحملون الرسالات ويقومون بالدعوات من عوامل النجاح، أن يكونوا بها مؤمنين ولها مخلصين. ومن اللازم أن تبرز القدوة الحسنة في كل مجال من مجالات الحياة، فلا بد من الطالب المسلم القدوة ليكون قدوة لزملائه الطلبة، ولا بد من المدرس القدوة الذي ينبغي عليه أن يتقن الدور الذي يقوم به في إعداد النشء، وتربيته. وأن يكون قدوة عمليه في الالتزام بآداب الإسلام وتعاليمه. ولا بد أيضا من الطبيب المسلم القدوة، والمهندس المسلم القدوة، والكاتب المسلم القدوة وهكذا.

والخلاصة أن التربية الإسلامية تشكل الإنسان تشكيلا شاملا متكاملا، حتى يصبح ربا لأسرة، وعضوا في مجتمع، ومحاربا في كتيبة، وايجابيا في قضايا والمجتمع، ومعلما ومتعلما وعضوا في جماعة منتجة اقتصاديا، ومستهلكا رشيدا فيها.

منهج الإسلام في تربية الانفعالات

لقد اشتمل القرآن الكريم وسنة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، على الكثير من المظاهر التي يستدل بها على نوع الانفعال ومدى سيطرته. وهذه المظاهر في مجموعها، تشتمل على المظاهر الأساسية للانفعالات النفسية؛ كمظاهر الفرح والسرور عند حصول ما ترغب النفس فيه، ومظاهر تدل على الإعراض أو الخوف عند حصول المكروه، أو ما لا ترتاح إليه النفس.

إن التربية الإسلامية جعلت من شخصية المسلم محورها الرئيس، حيث عملت على صياغتها صياغة متوازنة في الأبعاد العقلية، والانفعالية، والاجتماعية، والإيمانية، والجسدية، واستنبطت من النصوص الشرعية الطريقة التي تناول بها الوحي موضوع الانفعالات والمشاعر والعواطف الإنسانية من حب، وخوف، وغضب، وحسد، وكبر، وتواضع، إلى غير ذلك من الانفعالات التي تتضمنها القصص القرآنية، أو المشاهد المتعلقة بالحياة الدنيوية، وما يكتنفها من أفراح وأقراح، أو صور الحوارات بين الأنبياء وأقوامهم، أو مشاعر مرتبطة بالوعد

والوعيد. وبعبارة أخرى فإن القرآن أعظم كتاب يضم أصدق وأكمل وصف للانفعالات البشرية، كما يقدم أحسن علاج لأمراضها وانحرافاتها.

ومن هنا فإن منهج تربية الانفعالات في الإسلام "يعرف طريقه إلى النفس البشرية منذ اللمسة الأولى، ويعرف دروبها ومنحنياتها، فيتسلل إليها بعطف، ويعرف مداخلها ومخارجها، ويعرف قواها ومقدرتها فلا يتجاوزها أبدا، ويعرف أشواقها وحاجاتها فيلبيها تماما، ويعرف طاقاتها الأصلية فيطلقها للعمل والبناء، ويتسم بالرفعة والسمو. وهو نظام وجداني يأخذ في اعتباره فطرة هذا الإنسان بكل مقوماتها، وخصائص تكوينة وتركيبه بكل مقتضياتها" [4].

إن بناء الذات في التصور الإسلامي يقوم على ركائز متينة، وينطلق من قواعد وثوابت قائمة في أرض الوحي، صالحة لكل زمان ومكان. فالمسلم المربي سواء كان أحد الأبوين، أو كان معلما، أو مفكرا، أو مصلحا، أو داعية، أو كان شخصا مشغولا بتربية نفسه وإصلاح شأنها، هذا المسلم الذي يسعى إلى بناء ذاته وذوات غيره من أفراد مجتمعه وأمته، ما عليه إلا أن يقتدي بالرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبصحابته رضوان الله عليهم، وبالعلماء الأجلاء والمصلحين قديما

---

[4] - سيد قطب "هذا الدين" ص 30 ط 7 . بيروت دار الشروق. 1982

وحديثا، ويهتدي بهديهم في مجال بناء الذات، وتربية النفس وإصلاحها وتزكيتها. وحري به أيضا أن ينظر في كتب التراث الإسلامي المتعلقة بموضوع الأخلاق والسلوك وتهذيب النفس.

ولقد دعت التربية الإسلامية إلى اللجوء إلى الله في السراء والضراء، وشواهد ذلك متعددة؛ منها خطاب القرآن الكريم للمشاعر، عند تأججها في مواقف الخوف والترقب، لتؤول إلى أمن وطمأنينة؛ بالركون إلى الله تعالى، وتفويض الأمر إليه ، وشاهد ذلك؛ قوله تعالى: "فرجعناك إلى أمك كي تقرعينها ولا تحزن"؛ (طه: 40). وفي شاهد آخر قوله تعالى: "وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المؤمنين". (القصص: 10).

ومن ذلك فتية الكهف؛ الذين آووا إلى الكهف؛ يقول الله تعالى: "إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا ءاتنا من لذنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا" (الكهف: 10)، وهذه الثلة من الفتية، تعد قدوة للمؤمنين في اللجوء إلى الله تعالى والاستنجاد به، وطلب الرحمة منه، والاستعانة به في الاهتداء إلى الرشد في الحياة، وعند اشتداد الخوف من العدو، حيث يرتفع مستوى الانفعال، وهنا يبرز الشاهد في أثر الدعاء، واللجوء إلى

الله تعالى، في تهدئة الانفعالات، وتحقيق الأمن والطمأنينة في أعماق الفرد المسلم، وتوجيهه ربانيا نحو منصة الأمن في الحياة.

ومما يسهم في دفع الحزن، عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر، لأن لها أثرا بالغا في تهدئة النفس، ولأن كل شيء بقضاء الله وقدره، ولا يقع شيء في الكون إلا بعلم الله وبإذنه وتقديره، قال تعالى: "ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير" (الحديد: آية 22)، وقال تعالى: "ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين" (البقرة: 155).

وهكذا فالأمور تجري بتقدير الله وحكمته، ومن هنا ينهزم الشعور باليأس والتشاؤم؛ لأنه ليس من شيم المسلمين، مهما اشتدت المصاعب والتحديات التي يواجهها الفرد أو المجتمع في مسيرة الحياة على كافة الأصعدة.

"وقدمت التربية الإسلامية منهجا لمواجهة الابتلاءات في الحياة، إذ يعد الابتلاء من سنن ما يلاقيه الفرد في الحياة، حيث يتطلب الأمر تجاوزها وتعزيز الأمل، من خلال تحفيز الذات لمقاومة المصاعب والتحديات، ولقد وظفت التربية الإسلامية نصوصها، حيث يثمر البلاء

نتائجه من خلال الصبر الجميل، والسيطرة على النفس، وتحمل المصاعب في الحياة، لغاية تحقيق الأهداف الأخروية والأهداف الدنيوية السامية، وهذه وظيفة الابتلاء البنائية للفرد والجماعة المسلمة، إذ يقول صلى الله عليه وآله وسلم : "مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله، ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء" .....

وحذرت التربية الإسلامية؛ من مغبة الانسياق للانفعالات؛ التي تؤججها الغيرة والأحقاد، لأنها تسهم في إغلاق القلب عن الاستجابة للحق، وتلغي كل محاولة للتفكير الهادئ، وتغلق كل باب للمراجعة الذاتية، وتفتح باب الأهواء النفسية. ولعل قصة قابيل وهابيل تعطي دلالة على ذلك من خلال استحواذ الانفعالات السلبية على الأخ الحاقد وعناده الذي ملأ قلبه، فترجمه من خلال زوال كل معاني الإنسانية من قلبه تجاه أخيه.

وهكذا فإن قيم ذلك المنهج التربوي الرباني تشكل حشدا للطاقات، وتقوية للهمم والعزائم، وتنشيطا للوسع والاحتمال، وترقية بالانفعالات نحو مواطن الاستقامة السلوكية.

واهتمت التربية الإسلامية أيضا بتعزيز المشاعر المتفائلة، لأن الخبرات التي يتلقاها الفرد في ظل إحساس الشؤم تنعكس سلبا عليه،

فالأفكار المترسبة في الأعماق من خلالها تعمل آليا وتستجيب للأحداث والمثيرات استجابة آلية، مما يجعل هناك مساحة للتقاعس والانهزام، فيربط الأحداث في مجموعها في ظل تلك الانفعالات السلبية، وتنعكس سلبا على سلوكه، في حين ترتبط تهدئة النفس ودفع حافزيتها بالرؤية المتفائلة للأحداث، مما ينعكس إيجابيا على سلوك الفرد وتعاطيه مع الآخرين.

وعززت التربية الإسلامية أساليب الحوار الهادئة في الأسرة، وحضت على نبذ العنف في حل الأزمات الأسرية، وأكدت على عدم اعتماده في تربية الأبناء، ونوهت بضرورة خلق أجواء من الثقة بين الآباء والأبناء تؤهلهم إلى مناص الحوار الهادئ، وحل المشكلات في إطار التزاوج بين هدوء الانفعالات و منطقية الحوار.

ورسخت التربية الإسلامية أبعاد التواصل الاجتماعي؛ من خلال نبذ الانزواء والعزلة، التي تنشأ عن عدم التوفيق بين الفردية والجماعية.[5]

ويزخر التراث الثقافي الإسلامي بكتابات وتآليف تربوية رائدة في ميدان معالجة الانفعالات وضبطها وتوجيهها؛ فنجد الإمام العالم عبد

5- د. سعاد جبر؛" الذكاء الانفعالي وسيكولوجية الطاقة اللامحدودة" عالم الكتاب الحديث، إربد الأردن، 2008. ص 152، وما بعدها.

الرحمن بن قدامى المتوفي سنة 689 هـ، في كتابة "مختصر منهاج القاصدين"، قد عرض لهذا الموضوع من خلال طريقة اصطلح على تسميتها عند القدامى برياضة النفس، يقول هذا العالم:

"وقد زعم بعض من غلبت عليه البطالة فاستثقل الرياضة، أن الأخلاق لا يتصور تغييرها، كما لا يتصور تغيير صورة الظاهر.

والجواب: أنه لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لم يكن للمواعظ والوصايا معنى، وكيف تنكر تغيير الأخلاق ونحن نرى الصيد الوحشي يستأنس، والكلب يعلم ترك الأكل، والفرس تعلم حسن المشي وجودة الانقياد، إلا أن بعض الطباع سريعة القبول للصلاح، وبعضها مستصعبة.

وأما خيال من اعتقد أن ما في الجبلة لا يتغير، فاعلم أنه ليس المقصود قمع هذه الصفات بالكلية، وإنما المطلوب من الرياضة رد الشهوة إلى الاعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط، وأما قمعها بالكلية فلا، كيف والشهوة إنما خلقت لفائدة ضرورية في الجبلة، ولو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان. أو شهوة الوقاع لا نقطع النسل، ولو انعدم الغضب بالكلية، لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه. وقد قال الله تعالى: "أشداء على الكفار"؛ (الفتح: 29). ولا تصدر الشدة إلا عن

الغضب، ولو بطل الغضب لا متنع جهاد الكفار، وقال تعالى: "والكاظمين الغيظ" (آل عمران: 134)، ولم يقل: الفاقدين الغيظ"[6].

ويقول في معرض كلامه عن انفعال الغضب: واعلم: " أنه متى قويت نار الغضب والتهبت، أعمت صاحبها، وأصمته عن كل موعظة، لأن الغضب يرتفع إلى الدماغ، فيغطي على معادن الفكر، وربما تعدى إلى معادن الحس، فتظلم عينه حتى لا يرى بعينه، وتسود الدنيا في وجهه، ويكون دماغه على مثال كهف أضرمت فيه نار فاسود جوه، وحمي مستقره، وامتلأ بالدخان، وكان فيه سراج ضعيف فانطفأ، فلا يثبت فيه قدم، و لا تسمع فيه كلمة، ولا ترى فيه صورة، ولا يقدر على إطفاء النار، فذلك يفعل بالقلب والدماغ، وربما زاد الغضب فقتل صاحبه".[7]

ويتحدث عالمنا المقدسي عن انفعالات أخرى مثل الكبر، والعجب، والغرور، والخوف، والرجاء، والحب، كما بسط الكلام عن بعض الآليات النفسية التي يحتاج إليها المسلم عند ما يريد إصلاح انفعالاته وترشيدها، مثل المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والتذكر والتفكر.

---

[6] - الإمام أحمد بن قدامة المقدسي؛ "مختصر منهاج القاصدين"؛ ص 142-143، دار الفكر ، بيروت 1422-2002.

[7] - المرجع نفسه؛ ص 169.

وللعلامة الفقهية أبي محمد على بن حزم الأندلسي المتوفي سنة 457 هـ. كلام دقيق وعميق في علاج انفعال الحزن والقلق والهم:

"تطلبت غرضا يستوي الناس كلهم في استحسانه ، وفي طلبه، فلم أجده إلا واحدا، وهو طرد الهم، فلما تدبرته علمت أن الناس لم يستووا في استحسانه فقط، ولا في طلبه فقط، ولكن رأيتهم على اختلاف أهوائهم ومطالبهم وتباين هممهم وإراداتهم، لا يتحركون حركة أصلا إلا فيما يرجون به طرد الهم، ولا ينطقون بكلمة أصلا إلا فيما يعانون به إزاحته عن أنفسهم،.....

وليس في العالم، مذ كان إلى أن يتناهى، أحد يستحسن الهم ولا يريد طرده عن نفسه. فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع، وانكشف لي هذا السر العجيب، وأنار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم، بحثت عن سبيل موصلة، على الحقيقة، إلى طرد الهم الذي هو المطلوب للنفس الذي اتفق جميع أنواع الإنسان، الجاهل منهم والعالم، والصالح والطالح، على السعي له، فلم أجدها إلا التوجه إلى الله عز وجل، بالعمل للآخرة"[8].

---

[8] - أبو محمد علي بن حزم الأندلسي؛ "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" ، ص 14-15، دار الكتب العلمية، بيروت.

ويقول عن انفعال العجب: "من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه، فإن أعجب بفضائله فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإن خفيت عليه عيوبه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد، وأنه أتم الناس نقصا، وأعظمهم عيوبا، وأضعفهم تمييزا. وأول ذلك أنه ضعيف العقل، جاهل، ولا عيب أشد من هذين، لأن العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها، والأحمق الذي يجهل عيوب نفسه، إما لقلة علمه وتمييزه وضعف فكرته، وإما لأنه يقدر أن عيوبه خصال وهذا أشد عيب في الأرض. وفي الناس كثير يفخرون بالزنا واللياطة والسرقة والظلم فيعجب بتأتي هذه النحوس له، وبقوته على هذه المخازي"[9].

وللإمام الفقيه محمد بن قيم الجوزية كلام لطيف جدا متعلق بضبط الإرادة وتمحيص العمل، وهو كلام وجداني نفسي له علاقة وطيدة ببناء الذات وإصلاح النفس. يقول هذا العالم:

" ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

---

[9] - الكتاب نفسه، ص 65.

قال الحسن رحمه الله: "رحم الله عبدا وقف عند همه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر".

وشرح هذا بعضهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الأعمال وهم به العبد، وقف أولا ونظر: هل ذلك العمل مقدور له أو غير مقدور ولا مستطاع؟ فإن لم يكن مقدورا لم يقدم عليه، وإن كان مقدورا وقف وقفة أخرى ونظر: هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟ فإن كان الثاني تركه ولم يقدر عليه، وإن كان الأول وقف وقفة ثالثة ونظر: هل الباعث عليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه، أو إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟ فإن كان الثاني لم يقدم عليه، وإن أفضى به إلى مطلوبه، لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخف عليها ذلك يثقل عليها العمل لله تعالى، حتى يصير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول وقف وقفة أخرى، ونظر: هل هو معان عليه، وله أعوان يساعدونه وينصرونه إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه؟ كما أمسك النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار. وإن وجده معانا عليه

فليقدم عليه فإنه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوت خصلة من هذه الخصال، وإلا فمع اجتماعها لا يفوته النجاح"[10].

وللعلامة الصوفي أبي حامد الغزالي،[11] رحمه الله أفكار وإشارات قيمة، لها علاقة قوية برياضة النفس، وإدارة الذات وترشيد الانفعالات، منها قوله:

"اعلم أن المقصود من المجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة، تكميل النفس وتزكيتها وتصفيتها لتهذيب أخلاقها. وبين النفس وبين هذه القوى نوع من العلاقة تضيق العبارة عن تعريفه على وجه يتشكل في خزانة التخيل، لأن هذه العلاقة ليست محسوسة بل معقولة. وليس من غرضنا بيان تلك العلاقة، ولكن كل واحد من النفس والبدن متأثر بسبب صاحبه، فإن النفس إن كملت وكانت زكية حسنت أفعال البدن وكانت جميلة. وكذا البدن إن جملت آثاره، حدث منها في النفس هيئات حسنة وأخلاق مرضية.

---

[10] - محمد بن قيم الجوزية؛ "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان"، تحقيق د. السيد الجميلي، ص 90، دار ابن زيدون، بيروت، د.ت.

[11] - إن كثيرا من تآليف أبي حامد الغزالي مليئة بالشطحات والأفكار الشاذة والمنحرفة؛ (إحياء علوم الدين، معارج القدس، مشكاة الأنوار...)، بيد أن هذا لا يمنع الباحث من الاستشهاد بأقواله السديدة والبناءة.

والطريق إلى تزكية النفس، اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزكية الكاملة، حتى إذا صار ذلك معتادا بالتكرر مع تقارب الزمان، حدث منها هيئة للنفس راسخة تقتضي تلك الأفعال، وتتقاضاها بحيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع، فيخف عليه ما كان يستثقله من الخير؛ فمن أراد مثلا أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجواد وهو بذل المال، ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه، فيصير بنفسه جوادا. وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع، وغلب عليه التكبر، فطريقه في المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواظبة دائمة على التكرر مع تقارب الأوقات.

والعجب أن الأمر بين النفس والبدن دور، إذ بأفعال البدن تكلفا يحصل للنفس صفة، فإذا حصلت الصفة فاضت على البدن فاقتضت وقوع الفعل الذي تعوده طبعا بعد أن كان يتعاطاه تكلفا"[12].

وللفقيه العلامة أبي الحسن علي الماوردي المتوفى سنة 450 هـ أيضا كلام دقيق ونفيس في باب أدب النفس وإصلاحها وتزكيتها، ضمنه كتابه المشهور: "أدب الدنيا والدين"، حيث عالج فيه انفعال الكبر، وانفعال العجب، وانفعال الغضب، وانفعال الحلم. كما تناول فيه موضوع حسن

---

[12] - أبو حام الغزالي؛ "ميزان العمل"، ص 64، دار الكتب العلمية بيروت. 1409-1989.

الخلق. وهو عالم متميز في الميدان السلوكي والأخلاقي، ومطلع على الدروب والمسالك المؤدية إلى توجيه الإرادة، وترشيد الانفعالات النفسية، وضبطها وتوظيفها توظيفا متناغما مع الأهداف النبيلة، اقتطف من كتابه هذه الفقرة:

" اعلم أن النفس مجبولة على شيم مهملة، وأخلاق مرسلة، لا يستغني محمودها عن التأديب، ولا يكتفى بالمرضي منها عن التهذيب، لأن لمحمودها أضدادا مقابلة، يسعدها هوى مطاع، وشهوة غالبة؛ فإن أغفل تأديبها تفويضا إلى العقل، أو توكلا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع، أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلا، وفي صورة الجهل داخلا، لأن الأدب مكتسب بالتجربة، أو مستحسن بالعادة، ولكل قوم مواضعة، وكل ذلك لا ينال بتوقيف العقل، و لا بالانقياد للطبع، حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة، ويستفاد بالدربة والمعاطاة، ثم يكون العقل عليه قيما، وزكي الطبع إليه مسلما، ولو كان العقل مغنيا عن الأدب، لكان أنبياء الله تعالى عن أدبه مستغنين، وبعقولهم مكتفين وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: "بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[13].

[13] - أبو الحسن على الماوردي؛ "أدب الدنيا والدين" ص 168، دار الفكر، 1415-1995.

يتبين من خلال هذه النصوص التربوية والسلوكية التي يزخر بها تراثنا الإسلامي، أن الإسلام يمتلك أسلوبا رائعا وفريدا في تربية وجدان الإنسان وانفعالاته. وذلك من خلال ما سماه هؤلاء العلماء برياضة النفس وتأديبها، انطلاقا من قوله تعالى: "قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها" (9-10).

إن انفعالات الإنسان وعواطفه وغرائزه. عندما تنسجم مع دواعي الفطرة السليمة، وتستجيب لنداء الإيمان الباطني المتجذر في أعماق النفس البشرية، يسهل عليها الانقياد لتوجيهات الحق وأوامره، والإصغاء لخطاب الوحي الرباني فيحصل للنفس الأمن والطمأنينة، وتظفر بالسعادة الحقيقية، تلك السعادة التي خطب ودها الفلاسفة والمفكرون على مر العصور، فلم ينعموا بها، ولا تذوقوها، ولا شموا رائحتها لكونهم كانوا معزولين عن الوحي الإلهي أو معرضين عنه.

التخويف النفسي عند الحارث المحاسبي

التصوف شكل من الأشكال الثقافية المكونة للفكر الإسلامي بصفة عامة، ذلك أن التراث الفكري للحضارة الإسلامية يضم علوما ومعارف (الفقه وأصوله، والتفسير والمنطق والعلوم الطبيعية....) يحتل فيها التصوف مكانا بارزا. ولقد افترق المسلمون في موقفهم إزاء التصوف إلى ثلاث فرق: الفرقة الأولى مالت إلى القبول التام والانتصار للتصوف، والفرقة الثانية حملت شعار الرفض المطلق للفكر الصوفي، أما الفرقة الأخيرة والتي يمثلها أصحاب تيار الوسط، فإنها لم ترفض هذا الفكر، وإنما احتفظت منه بما لا يتعارض مع قواعد الشرع ولا يتنافى مع أصول العقيدة.

ولا ريب أن الباحث الحصيف لا يصعب عليه فهم العوامل النفسية والاجتماعية والسياسية، التي تكمن وراء انتشار موقف الفرقتين الأوليتين، وأن عامل رد الفعل إلى حد ما، يلعب دورا أساسيا في نشأة الموقفين: موقف الانتصار وموقف الرفض، باعتبار أن التصوف في الإسلام كان، من حيث النشأة والانتشار، بمثابة رد الفعل تجاه الصراعات السياسية وحياة البذخ والترف في منتصف القرن الثاني للهجرة؛ حيث صعود نجم الدولة العباسية، ومن هنا فإن الميل إلى التصوف والدفاع عنه قد يكون بسبب ذلك.

كما أن موقف الرفض يعتبر رد فعل تجاه المتصوفة وانزلاقاتهم من قبل جمهور المسلمين وخاصة بعض الفقهاء، ذلك أن الطريقة التي أخذ بها عموم الصوفية في فهم الدين، أثارت عليهم حفيظة الفقهاء، الذين بذلوا كل ما في وسعهم للرد عليهم والتصدي لهم، بل كانوا أحيانا يوغرون عليهم صدور الحكام. ومع أن هؤلاء الفقهاء كانوا يهدفون بحملتهم هذه إلى غاية حميدة؛ تتجلى في الذب عن الشريعة الإسلامية، والحفاظ على نقائها وصفائها، والحيلولة دون تسرب الأفكار الغالية، فإن موقفهم كان كثيرا ما يتسم بنوع من الشدة و القساوة، مما جعل شقة الخلاف تتسع بين الفريقين يوما بعد يوم.

ولعل موقف الفرقة الثالثة باعتداله و وسطيته، يكون أقرب إلى الصحة سواء من حيث النقل أو العقل. ويمثل هذا الموقف كثير من علماء الإسلام، على رأسهم ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية، وكذلك الإمام الشاطبي وغيرهم. وفي هذا الصدد يقول الشيخ ابن تيمية:

" وكان المشايخ المصنفون في السنة يذكرون في عقائدهم مجانبة من يكثر دعوى المحبة والخوض فيها من غير خشية، لما في ذلك من الفساد الذي وقع فيه طوائف من المتصوفة، وما وقع في هؤلاء من فساد الاعتقاد والأعمال أوجب إنكار طوائف لأصل طريقة المتصوفة بالكلية، حتى صار المنحرفون صنفين: صنف يقر بحقها و باطلها، وصنف ينكر

حقها و باطلها كما عليه طوائف من أهل الكلام والفقه. والصواب هو الإقرار بما فيها وفي غيرها من موافقة الكتاب والسنة"[14]

إن عملية تجريد العطاء الصوفي من البدع والشوائب و الشطحات، والاحتفاظ بما قد ينفع ميدان تربية النفوس، وعلاج أمراض القلوب، ومحو الرذائل وغرس الفضائل، عملية مفيدة وبناءة ينبغي أن ينتدب لها أولوا الألباب من العلماء والفقهاء. وما دامت الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها، فإن كثيرا من كتب المتصوفة على علاتها تزخر بالحكم والأفكار السلوكية القيمة.

نشأ المحاسبي بالبصرة، ثم انتقل منها إلى بغداد حيث ذاع صيته وأقبل الناس عليه يستمعون إلى أحاديثه ومواعظه البليغة، إلى أن توفي رحمه الله سنة 243 هـ. وكان معاصرا لكبار العلماء والفقهاء كالإمام أحمد بن حنبل وأبي القاسم الجنيد وغيرهما. "روى الخطيب البغدادي بسند صحيح أن الإمام أحمد سمع كلام المحاسبي فقال لبعض أصحابه: ما سمعت في الحقائق مثل كلام هذا الرجل ولا أرى لك صحبتهم!"[15]

يستفاد من كلام أحمد بن حنبل، أن صاحبنا كان على طريقة القوم شغوفا بالكلام في الحقائق وما يتعلق بعلوم الباطن. ولعل كتاب "الوصايا" للمحاسبي خير دليل على ذلك، فقد تحدث في مقدمته عن الحيرة التي انتابته أثناء بحثه عن الحقيقة: "فلم أزل برهة من عمري أنظر اختلاف

---

[14] - مجموع فتاوى ابن تمية /ج10/ ص 82

[15] - تهذيب التهذيب بن حجر / ج 2/ ص 116 دار الفكر

الأمة، وألتمس المنهج الواضح، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد العلماء... فقيض لي الرؤوف بعباده، قوما وجدت فيهم دلائل التقوى وأعلام الورع وإيثار الآخرة على الدنيا... فأصبحت راغبا في مذهبهم مقتبسا من فوائدهم، قابلا لآدابهم.. ففتح الله لي علما...."

ويقول ابن خلكان مترجما للمحاسبي: " أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي البصري الأصل الزاهد المشهور، أحد رجال الحقيقة، وهو ممن اجتمع له علم الظاهر والباطن، وله كتب في الزهد والأصول، وكتاب "الرعاية" له، وكان قد ورث من أبيه سبعين ألف درهم، فلم يأخذ منها شيئا، قيل لأن أباه كان يقول بالقدر، فرأى من الورع أن لا يأخذ ميراثه.... سئل عن العقل ما هو فقال. نور الغريزة مع التجارب يزيد ويقوى بالعلم والحلم"[16]

يقول الحارث المحاسبي في كتابه "الرعاية لحقوق الله" في " باب ما ينال به خوف وعيد الله عز وجل":

قلت فبم ينال الخوف والرجاء؟

قال: تعظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد.

قلت: فبم ينال عظيم المعرفة بعظيم قدر الوعد والوعيد؟

قال: بالتخويف لشدة العذاب والترجي لعظيم الثواب.

قلت: وبم ينال التخويف؟ قال بالذكر والفكر في العاقبة، لأن الله عز وجل قد علم أن هذا العبد إذا غيب عنه ما قد خوفه ورجاه لن يخاف ولن

---

[16]- وفيات العيان لابن خلكان /ج2/ ص 58-57 دار الفكر

يرج إلا بالذكر والفكر،لأن الغيب لا يرى بالعين، وإنما يرى بالقلب في حقائق اليقين، فإذا احتجب العبد بالغفلة عن الآخرة... ولم يخف ولم يرج إلا رجاء الإقرار وخوفه، وأما خوف ينغص عليه تعجيل لذته... إنما يجتلب بالذكر والفكر والتنبيه والتذكر لشدة غضب الله وأليم عذابه وليوم المعاد"[17].

التجأ المحاسبي في هذا الكتاب إلى طريقة الحوار حيث افترض مخاطبا وهو يجيب عن تساؤلاته، ولا ريب أن استعمال هذه الطريقة في معالجة بعض الموضوعات، له دور إيجابي في تقريب المعاني إلى الأذهان وبلوغ الهدف المنشود. وبعد أن حاور المحاسبي مخاطبه في موضوع التقوى ومحاسبة النفس، ثم في التوبة وشروطها، وما يبعث عليها، انتقل به إلى مجال الخوف والرجاء. فالنص الذي بين أيدينا وصف دقيق وتحليل مركز للطريقة التي بواسطتها يستشعر العبد الخوف والرجاء وتظل نفسه خاضعة لتجاذب قوتيهما.

إن المسلم في زمان كزماننا يصعب عليه أن يتحقق بحالتي الخوف والرجاء ويقتفي في ذلك أثر السلف الصالح، لكن الصعوبات مهما عظمت تتلاشى أمام الإرادة الصلبة والعزم الصادق. فممارسة التخويف عملية إرادية محضة وهي من أنجع الوسائل في استحضار حالتي الخوف والرجاء وتكون بواسطة الذكر والفكر. ولقد علم الله سبحانه وتعالى أن المسلم في سعيه الدنيوي وجريه وراء الرزق، يكون عرضة للغفلة

---

[17]-الرعاية لحقوق الله لأبي عبد الله الحارث المحاسبي ص 61 دار المعارف.

ولقساوة القلب، لذا نبهه إلى الذكر وقراءة القرآن، وحثه على التأمل والتدبر ليستيقظ ويزيل عن قلبه آثار تلك الغفلة، ويحيل القساوة ليونة وخشوعا.

وما أكثر الآيات والأحاديث الدالة على الذكر والتلاوة والتفكر في آيات الله وملكوته، فمن القرآن قوله تعالى. " إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار". (آل عمران:190- 191). وقوله عز وجل: "وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم لعلهم يتفكرون" (النحل 44)...إلى غير ذلك من الآيات.

ومن الأحاديث قول النبي صلى الله عليه وسلم. "إن الله خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، فأمسك عنده تسعا وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة، ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن من النار" (رواه البخاري في باب الرقائق). وفي حديث قدسي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال. "يقول الله تبارك وتعالى: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه، وإن تقرب إلي ذراعا تقربت منه باعا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة" (متفق عليه).

إن المسلم الذي لا يخصص في حياته أوقاتا منتظمة لتلاوة القرآن وذكر الله والتفكر في آياته، مستحضرا بذلك رحمة خالقه لهو إنسان مغبون ومستهدف من الشيطان، لأن القلب الذي لا يخفق، ولا يخشع قلب لا نور فيه ومهدد بالموت. وكثيرا ما يستنكر المسلم قساوة قلبه، دون أن يبحث عن العوامل والأسباب التي تكمن وراء ذلك. بل أحيانا يتجاهلها أو يلجأ إلى عملية التسويف، ويمني أو يعد نفسه بالإقبال على الذكر وقيام الليل، حالما ينتهي من مشاغله الدنيوية! وقد نسي أن الموت قد يباغته وهو منهمك في أعماله ومشاريعه، أو قد يصاب بمرض عضال يحول بينه وبين تحقيق تلك الأمنية. قال الرسول صلى الله عليه وسلم. "بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقرا منسيا أو غنى مطغيا أو مرضا مفسدا أو هرما مفندا أو موتا مجهزا أو الدجال فشر غائب ينتظر أو الساعة والساعة أدهى وأمر" (رواه الترمذي).

ولابد، إن صدقت النية وخلص العمل، أن يثمر التخويف الخوف ويفضي إليه، فكم من عاص وكم من مذنب غليظ القلب انزجرت نفسه، وتابت إلى الله، بعد أن عاهد خالقه على التوبة النصوح وتدبر آيات الوعد والوعيد، وطاف بعقله في أرجائها وذكر نفسه بمشاهد الحشر وأهوال القيامة، واستقر في مخيلته بعض ألوان عذاب جهنم وصنوف من ملذات الجنة ونعيمها. وبعد توبته أنعم الله عليه بقلب واعظ وأذاقه حلاوة التقوى.

ويرى المحاسبي أن المسلم يملك التخويف، أي باستطاعته أن يلجأ إليه ويمارسه تكلفا، غير أنه لا يملك الخوف وإنما يقذفه الحق سبحانه وتعالى في قلبه إن كان صادقا في تخويفه لنفسه. "إن الله عز وجل إنما خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا، ورجانا لنرجيها، والتخويف تكلف من العبد بمنة الله عز وجل وبفضله عليه، والخوف هائج منه لا يملكه... وقد يخطر الله عز وجل الخوف بقلب العبد المؤمن من غير تكلف، إذا أراد أن يتفضل عليه بذلك، وإن لم يخطره بباله لم يكن العبد عنده معذورا بترك تكلفه للتخويف، كما أمره أن يخوف نفسه، لأنه أمره بالفكرة في المعاد، وذلك هو التخويف والترجي، وتهدده وأوعده ليتفكر في ذلك، فيخافه ويرجوه"[18].

ثم إن أهم ما يعين على تخويف النفس ويعجل بقطف ثمار الخوف؛ ولوج باب معرفة الله وصفاته، لأن من عرف الله سبحانه وتأمل بعض أسمائه الحسنى؛ كالجبار والمتكبر والقهار والمنتقم والمذل، خافه بالضرورة، قال تعالى : "إنما يخشى الله من عباده العلماء".(فاطر 28). وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إني لأعلمكم بالله وأشدكم له خشية" (رواه البخاري)

وخوف العلماء أثبت في النفس وأشد أثرا في الجوارح، كما أنه يولد في القلب الذل والخشوع والاستكانة، ومن علامات رسوخه الشعور به

---

[18]- الرعاية لحقوق الله... المحاسبي ص 62...

من جريان الأنفاس، لكون صاحبه يعلم أن الله مقلب القلوب، وما من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمان عز وجل.

ومن الطرق الناجعة كذلك في استشعار الخوف، الإكثار من ذكر الموت وزيارة قبور المسلمين "قال العلماء: ينبغي لمن أراد علاج قلبه وانقياده بسلاسل القهر إلى طاعة ربه، أن يكثر من ذكر هادم اللذات ومفرق الجماعات ومؤتم البنين والبنات، ويواظب على مشاهدة المحتضرين، وزيارة قبور أموات المسلمين. فهذه ثلاثة أمور، ينبغي لمن قسا قلبه ولزمه ذنبه أن يستعين بها على دواء دائه، ويستصرخ بها على فتن الشيطان وأعوانه، فإن انتفع بالإكثار من ذكر الموت، وانجلت به قساوة قلبه فذاك، وإن عظم عليه رأي قلبه، واستحكمت فيه دواعي الذنب، فإن مشاهدة المحتضرين وزيارة قبور أموات المسلمين، تبلغ في دفع ذلك ما لا يبلغه الأول، لأن ذكر الموت إخبار للقلب بما إليه المصير، وقائم له مقام التخويف والتحذير. وفي مشاهدة من احتضر وزيارة قبر من مات من المسلمين، معاينة ومشاهدة، فلذلك كان أبلغ من الأول..."[19]

ومما يحسن الإشارة إليه أن الإفراط في التخويف قد يأتي بنتيجة غير مرضية، ومن ثم ينبغي للمسلم أن يراعي التوازن بين حالتي الخوف والرجاء. لأن الإفراط في الخوف يؤدي إلى اليأس والقنوط، كما أن الإفراط في الرجاء يوقع في التهاون والكسل. وكان فيما قاله أبو بكر

---

[19]- الجامع لأحكام القرآن لمحمد القرطبي / ج10 ص 116 دار الكتب العلمية.

الصديق، وهو يودع الدنيا، لعمر بن الخطاب؛ "... ألم تر يا عمر أنها نزلت آية الرخاء مع آية الشدة، وآية الشدة مع آية الرخاء، ليكون المؤمن راغبا راهبا، لا يرغب رغبة يتمنى فيها على الله ما ليس له، ولا يرهب رهبة يلقي فيها بيديه"[20]

ثم إن الخوف والرجاء متقابلان، أي أن الإنسان إذا تصور أحدهما تصور الآخر فلا يتجرد أحدهما عن مقابله، فالذي يخاف من شيء يرجو في نفس الوقت النجاة منه، والذي يرجو شيئا يخاف أيضا فواته، فالرجاء إذن متصل بخوف خفي، كما أن الخوف متصل برجاء خفي.

---

[20]- إتمام الوفا في سيرة الخلفاء للشيخ محمد الخضري، ص64 دار الإيمان بيروت.

بين الذكر والإرادة

قد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة، أن الذكر والإرادة مفهومان متقابلان؛ باعتبار أن الذكر مجاله الدين والممارسة الروحية، التي تهدف إلى تقوية الرابطة بين الذاكر ومذكوره وهو الله عز وجل. في حين أن الإرادة، وهي من المكونات الأساسية للشخصية الإنسانية ، تعتبر من المفاهيم الجوهرية المؤسسة لعلم الأخلاق، كما أن لها موقعها المتميز في المنظومات الفلسفية قديما وحديثا، وكذا في ثنايا الأبحاث والنظريات النفسية، وفي صلب مادة علم النفس الحديث. فكيف يا ترى يمكن الجمع بينهما ؟ . والحقيقة أن المفهومين متلازمان أقوى ما يكون التلازم، بل إن كل واحد منهما متوقف في وجوده على الآخر. بحيث إذا اختفى أحدهما اختفى الآخر.

ثم إن هذين المفهومين لازمان لكل حضارة تنشد الخير والعدل، وتسعى إلى إقامة الحق وممارسة الاستخلاف في الأرض على المنهج الرباني . ومجرد نظرة استقرائية نلقيها حول الحضارات البائدة؛ مثل حضارة اليونان أو الفرس، نجد أن أفولها يرتبط أساسا بالخلل والانحراف العقلي، والنفسي، والعقدي، حيث الابتعاد عن الفطرة، وخلو المجتمع من معاني ومقومات الذكر والإرادة المتينة التي تربط الإنسان بالسماء. هذا الخلل والانحراف الجوهري، يترتب عنه معظم المشاكل

والصراعات السياسية والاجتماعية، التي عادة ما ينظر إليها المؤرخون باعتبارها السبب المباشر والرئيس في التدهور الحضاري.

ولا يعدم المتأمل والباحث الناقد، الشواهد التي تدل على أن واقعنا الحضاري اليوم يعاني أزمة في الإرادة، تمخضت عن أزمة في الذكر؛ أي في العلاقة بين المخلوق وخالقه عز وجل. معنى ذلك أن أبعاد الأزمة روحية أكثر منها اجتماعية، أو سياسية، أو ما شابه ذلك، ومن ثم باتت المشاكل النفسية والاجتماعية الناتجة عن ضعف بنية الإرادة وانحراف مسارها، كثيرة ومتنوعة.

إن الإرادة وظيفة العقل الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوانات، فكما تقبل حاسة الشم الروائح الطيبة وتريدها، كذلك يتقبل العقل الأفكار الطيبة والأعمال الصالحة ويريدها. وكما أن تلك الحاسة قد يطرأ عليها الفساد، فيتلذذ صاحبها برائحة الدخان والخمور إلخ...، كذلك يمكن أن تفسد إرادة الإنسان فينجذب إلى الأفكار الضالة والأعمال الفاسدة.

وإذا كان المثل الأعلى يتجلى في أسمى ما تصبو إليه فطرة الإنسان، فإن الإرادة الراقية والنبيلة هي التي تهدف إلى التعلق به، وهذا المثل الأعلى يتجسد أساسا في الدين الحنيف والعقيدة الصحيحة. ثم إن مقياس الإرادة السامية هو بذل النفس والمال؛ قال تعالى: "إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة" (التوبة، 112)، فإذا غدا

الإنسان مستعدا لبذل نفسه وماله في سبيل الأهداف العليا، فإنه يكون قد أصبح مريدا حقا، متسلقا أرقى مستويات الإرادة.

ويوم تنكبت الحضارات منهج الفطرة، وأعرضت عن خطاب الوحي، سلك أهلها سبيل الحياة البهيمية، وتقلصت دائرة الإرادات، وانحصرت في المجالات المتعلقة بالأهواء والشهوات والسلوكات الدنيئة.

بل إن الإرادة كمبحث من مباحث الفلسفة وعلم النفس قد أصبحت، منذ مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، موضوع جدل حاد بين الاتجاهين العقلاني واللاعقلاني، حيث أكد الاتجاه الثاني؛ خضوع الإنسان لقوى باطنية لاشعورية تحدد سلوكه وتوجه إرادته. وهو ما نلمسه في صلب نظرية التحليل النفسي عند فرويد ونظرائه من أنصار النظرية، أو قبل ذلك في ثنايا فلسفة شوبنهور وسواه من الفلاسفة الذين أعلوا من شأن العقل الباطني واللاشعوري. ولعل الأمراض النفسية والعصبية المنتشرة في العالم الغربي خير دليل على أن الإنسان الغربي المعاصر يعاني أزمة حادة وخطيرة على مستوى الإرادة.

الذكر والإرادة متلازمان ومتداخلان

إن علاقة التلازم والتداخل بين هذين المفهومين تتجلى في جوانب متعددة من حياة الإنسان المسلم؛ وعلى رأسها الجانب المعرفي. ذلك أن المسلم لن يمتلك المعرفة الحقيقية، إلا إذا استوعب مفهوم الذكر وتمثله في إطاره الشمولي، بحيث يؤدي هذا الاستيعاب والتمثل، إلى تربع

الإرادة القوية والهادفة والملتزمة، على عرش قلبه وعقله، فيغدو بذلك مثالا للمسلم الذاكر المريد. إن أنوار الذكر الشرعي اللساني والقلبي، عندما تنفذ إلى قلب المسلم وتضيء أرجاءه، تعمل في الوقت نفسه على تربية النفس الشهوانية، وتزكيتها وتحويل صفاتها الذميمة من كبر، وعجب، وحسد، ورياء، وجهل، إلى أضدادها من تواضع... وحب وتعلم، فتنقشع غيوم النفس الأمارة، وتأخذ حجبها في التلاشي، فتزول موانع المعرفة، وتفتح أبواب التلقي والتعلم بعد أن كانت موصدة.

وكما أن دخول ميدان الذكر والترقي في مدارجه على المنهج النبوي وسنة الصحابة الأطهار، يفضي بالمسلم إلى عالم المعرفة الحقة، بعد التسلح بالإرادة الصحيحة والهادفة، فإن ركوب بحر الجهالة والغفلة يجعل الإنسان أشبه ما يكون بالحيوان المتوحش بل أضل سبيلا. قال الفقيه العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله:

""وصدأ القلب بأمرين بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر. فمن كانت الغفلة أغلب أوقاته كان الصدأ متراكما على قلبه، وصدأه بحسب غفلته؛ وإذا صدئ القلب لم تنطبع فيه صور المعلومات على ما هي عليه، فيرى الباطل في صورة الحق والحق في صورة الباطل، لأنه لما تراكم عليه الصدأ أظلم فلم تظهر فيه صورة الحقائق كما هي عليه. فإذا تراكم عليه الصدأ واسود وركبه الران، فسد تصوره وإدراكه، فلا يقبل حقا ولا ينكر باطلا."[21]

---

[21] - محمد بن قيم الجوزية، "الوابل الصيب من الكلم الطيب"، دار الكتب العلمية بيروت ص 64

ولما كانت حال النفس الذاكرة كما ذكرت آنفا، كانت حال النفس الغافلة بخلاف ذلك ضعيفة ومسلوبة الإرادة، كما يغلب عليها الخوف والقلق إذا حل بها مكروه. ذلك أن الإنسان حين يغفل عن ذكر الله، فإنه ينتقل تلقائيا إلى ذكر غير الله، فينتقل من التوحيد إلى الصنمية، حيث ينسب الفاعلية والتأثير إلى الأصنام التي يقيمها، فتضطرب بذلك معتقداته ويتمزق ولاؤه وتتناثر شخصيته، ولا ينقذه من هذا التمزق والاضطراب إلا العودة إلى التوحيد وذكر الله عز وجل.

نعم إن الذكر بمفهومه اللساني والقلبي، وكذا من حيث أنه تأمل وتفكر وتدبر وطاعة وامتثال لأوامر الله، هذا الذكر له تأثير في تقوية الإرادة المثالية الهادفة واستثارة طاقاتها.

ولما كانت النفس ميالة بطبعها إلى الملذات والشهوات واتباع سبل الغواية، كانت بذلك السبب المباشر في إضعاف الإرادة الإنسانية، والحيلولة بينها وبين القيام بالوظائف السامية، ولاسيما وظيفة الاستخلاف في الأرض. وهنا تبرز أهمية الذكر بمفهومه الشامل، باعتباره أعظم وسيلة لتهذيب نوازع النفس وميولاتها والأخذ بيدها إلى ساحل السعادة والطمأنينة، كما تبرز أهميته أيضا في إعادة الحياة إلى الإرادة الحقيقية الهادفة. يقول الفقيه العلامة السابق:

"لما كان في القلب قوتان قوة العقل والتمييز وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه ويعود عليه بصلاحه وسعادته، فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق، ومعرفته،

والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل، فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره عليه فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه.

وينبغي أن تعرف أن هاتين القوتين لا تتعطلان في القلب، بل إن استعمل قوته العلمية في معرفة الحق وإدراكه، وإلا استعملهــــا في معرفة ما يليق به ويناسبه من الباطل، وإن استعمل قوته الإرادية العملية في العمل به، وإلا استعملها في ضده، فالإنسان حارث همام بالطبع، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أصدق الأسماء: حارث وهمام" فالحارث الكاسب العامل، والهمام المريد. فإن النفس متحركة بالإرادة، وحركتها الإرادية متصورة لها، متميزة عندها، فإن لم تتصور الحق وتطلبه وتريده تصورت الباطل وطلبته وأرادته ولابد." [22]

نستنتج من هذا النص النفسي والتربوي العميق، أن الإرادة أمر فطري وباعث باطني عند الإنسان، كما أنها وظيفة العقل الأساسية. وهذا العقل مجبول على تقبل الأفكار الطيبة والأعمال الصالحة وإرادتها إذا لم تعترض سبيله موانع معينة، قال النبي صلى الله عليه وسلم : "ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو يمجسانه أو ينصرانه"[23] .

إن الإرادة الهادفة والصحيحة إذن تتولد من أمرين أساسيين هما : المثل الأعلى، وعقل الإنسان المميز والمنور بنور الله عز وجل. ولا

---

[22] محمد بن قيم الجوزية ؛ إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان ، دار ابن زيدون بيروت ص31-32

[23] - متفق عليه.

سبيل إلى التحقق بهذين الأمرين ما لم نكن على وعي عميق بمفهوم الذكر، وما لم نمارسه قولا وفعلا وتدبرا وتمثلا.

الإيحاء الذاتي

لقد أثبتت الدراسات والأبحاث النفسية قديما وحديثا، أن الإنسان الذي يشكو ضعف الإرادة، يستطيع تقويتها والرفع من مستواها عن طريق الإيحاء الذاتي. والإيحاء في هذا المجال عبارة عن عملية نفسية وعقلية تهدف إلى إدخال فكرة ما وتثبيتها في الوعي والشعور. وأفضل الإيحاءات النفسية هي التي ننشئها بأنفسنا، فنتخيل أننا نملك القوة العقلية والفكرية التي نحتاج إليها ونستخدمها مثلا، في التغلب على الاضطراب والخمول، أو في النهوض بالعزيمة. وهكذا من خلال الإيحاءات المتكررة ذهنيا عبر ترديد بعض العبارات الدقيقة والهادفة، مثل: "أستطيع التخلص من هذه العادة... بإمكاني أن أفعل غير ذلك... لقد أصبحت حرا"، أو مثل : "أنا هادئ تماما... أنا لا أشعر بالمؤثرات الحسية.."، يغدو المرء وكأنه يحيا معاني وحقائق تلك العبارات، الأمر الذي قد يدفعه فعلا إلى تطبيقها وممارستها.

وقد أثبتت الأبحاث والدراسات العلمية النفسية، أن الفكرة تولد إشعاعا داخليا وخارجيا بالغ القوة، وأنها تبث في الأثير حركات اهتزازية من شأنها أن توقظ في بعض الأشخاص حالات روحية ونفسية منسجمة مع طبيعة الفكرة وقلب صاحبها. وهذا الأمر نلمسه مثلا في العلاقة بين العالم والمتعلم، أو المربي والمريد، أو بين محب ومحبوبه، إلخ.

وإذا كانت الفكرة الصادرة عن المرسل تؤثر في المرسل إليه، فإن تأثر الإنسان بأفكاره من باب أولى، حيث يكون في آن واحد مرسلا ومتلقيا. والإنسان يتأثر ويخضع تلقائيا لأفكاره طيلة حياته، إلا أنه يعجز أحيانا عن تمثل واستلهام بعض الأفكار التي يرغب فيها، وهنا يأتي دور الإيحاء الذاتي كوسيلة ناجعة لتحقيق هذه الرغبة.

والإنسان المسلم الذي يكثر من ذكر الله سبحانه وتعالى بخشوع وطمأنينة وتأمل، واستحضار لعظمة الخالق، يكون ممارسا بطريقة تلقائية ومتصلة لعملية الإيحاء الذاتي بكل ما تحمله هذه العملية من معان إيجابية وعميقة؛ فالذاكر المردد لصيغة من صيغ الذكر المشروعة، يظل مستلهما كل المعاني الروحية التي تنطوي عليها تلك الصيغة، فتنساب في باطنه وكيانه، محدثة ما شاء الله من الخير والأسرار والبركات، كما تعمل على تفجير الطاقات الروحية والإيمانية الدفينة، مما يكون له أثر مباشر في تفعيل الإرادة ومدها بالقوة والحيوية والنشاط.

إن عكوف الذاكر مثلا على قول :"أستغفر الله" أو "لا إله إلا الله" أو "سبحان الله" ، يجعله يستوحي من هذه الكلمات معاني الاستغفار، والتهليل، والتسبيح، وهي بلا شك معاني قوية، مرتبطة بالتوحيد والفطرة، تزود الذاكر بشحنات إيمانية عالية تمكنه من تزكية نفسه، والسهر على بناء شخصيته بناء متميزا، مما يعينه على القيام بوظيفة الرسالة والاستخلاف. وكلما حافظ المسلم على الذكر والتذكر، ترقى في

سلم السيطرة على نفسه، واكتسب القدرة على مراقبتها بطريقة تلقائية، وبالتالي ازدادت ثقته بها، وبكفاءاته وقدراته.

وهكذا فإن الإيحاء الذاتي بواسطة الذكر أفضل وأسمى أنواع الإيحاءات الذاتية، لما يثمره من فوائد في ميدان الإرادة والشخصية وإعادة الثقة بالنفس، وتجديد الثقة بالخالق عز وجل، والارتباط بأسس الفطرة والتوحيد. كما يسهم، من خلال الذكر دائما، في تربية الذوق والوجدان وتنمية قوى الإرادة، التي تتجسد عمليا في محبة الله وخشيته ورجائه، لأن محبة الله تدفع المسلم إلى طاعته وحده، وخشية الله تزجره عن المضي فيما يغضب مولاه، والرجاء من الله يمنحه القدرة على الاستمرار، وتحمل الشدائد والمشاق والأزمات. والنجاح في هذه الإرادات الثلاث، يؤدي إلى تحرير القلب من الخضوع للأهواء النفسية والطواغيت، والأصنام المادية والمعنوية.

الذكر مصدر القوة والطاقة الروحية

لقد علم النبي صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة وعليا رضي الله تعالى عنهما، كيف يسبحان الله ويحمدانه ويكبرانه، كل ليلة قبل النوم، ثلاثا وثلاثين، وذلك لما سألته فاطمة الخادم، وشكت إليه ما تقاسيه من الطحن والسعي والخدمة، فعلمهما ذلك وقال : "إنه خير لكما من خادم" . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، كما أن القرآن الكريم ملئ بالآيات الدالة على ذلك، منها قوله تعالى: "يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا

واذكروا الله كثيرا" (الأنفال 45) ، وقوله تعالى: "الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب" (الرعد؛ 48).

"إن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل، إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه، حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا، والله المستعان."[24]

نعم إن ذكر الله عز وجل يمنح الذاكر العناصر الأساسية التي تمكنه من اكتساب القوة النفسية الفياضة، والطاقة الروحية الضرورية لممارسة الاستخلاف والترقي في مدارج الإيمان والإحسان. كما أن الذكر يكون بمثابة الحرم الآمن والحصن المنيع الذي يصعب على الأعداء من الجن والإنس اختراقه، أو النيل من قوته ومناعته.

ثم إن الذكر الدائم والمتواصل يكسب القلب حياته الحقيقية، والقلب الذاكر حي، في حين أن القلب الغافل ميت. قال النبي صلى الله عليه وسلم: "الذي يذكر والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت" (حديث صحيح، رواه البخاري)

وعندما يستيقظ القلب من سباته ويحيا بالذكر، يحصل في الصدر من الانشراح والطمأنينة ما لا يمكن وصفه، كما يباغث الذاكر بلذة

---

24 - "الوابل الصيب..." المرجع السابق ص

روحية باطنية لايشبهها شيء من لذات الدنيا. وإذا غدا الاستغراق في الذكر لسان الذاكر، غمرته حلاوة لم يعهدها من قبل؛ إنها حلاوة الذكر الناتجة عن الأنس بالله والقرب منه، وكلاهما ثمرة الطاعة والمحبة، فكل مطيع مستأنس وكل عاص مستوحش، ومن أنست نفسه بالله لم يجد لذة في الأنس بغيره، ومن أشرق قلبه بالنور لم يعد فيه متسع للظلام.

موقع الشيطان من إرادة الإنسان

لا شك أن تأثير الشيطان في الإنسان كان وما يزال، على مر العصور، موضوع جدل بين المؤيدين والمعارضين. ويصعب على الباحث المتأمل أن يعثر على حضارة من الحضارات، أو ثقافة من الثقافات القديمة أو المعاصرة، خالية من ذكر الشيطان وعلاقته بالنسيج النفسي والاجتماعي للإنسان. ولم تخل الثقافة الغربية المعاصرة نفسها، وهي ذات التوجه المادي العلماني، من ذكر ووجود هذا الكائن الخفي واللامرئي. وكمثال حي على تواجده في الأوساط الاجتماعية الغربية؛ وجود كثير من المراكز والجمعيات المنتشرة في المدن الكبرى وعواصم أوربا وأمريكا، حيث يستقبل المرضى المصابون بالمس الشيطاني أو السحر، أو الأشخاص الذين يرغبون في الاستفادة من قوة الشياطين، والاستعانة بهم في حياتهم الاجتماعية !!؟

وهناك مئات من الجمعيات التي تطلق على نفسها إسم "الجمعيات الروحية الحديثة"، منتشرة في ربوع الغرب الأوربي والأمريكي، تمارس

أنشطة فكرية و نفسية، لها ارتباط وثيق بعالم الجن والشياطين. ولهذه الجمعيات والمراكز أنصار ومؤيدون يعدون بمئات الآلاف، كما تنتشر مجلات ونشرات تنطق بعقيدتهم وفلسفتهم.

أما في الكتاب والسنة، فقد جاء ذكر الشيطان في آيات وأحاديث كثيرة. كما حذرنا الله سبحانه وتعالى من اتباع الشيطان، واتخاذه وليا من دونه. وأمرنا رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، باجتناب طريقه، وتوقي مجالسه، وسد الطرق والمسالك التي يسلكها للوصول إلى القلوب.

وفي معرض الحديث عن طبيعة الشيطان وأعماله وأهدافه، أشار القرآن الكريم إلى أن هذا اللعين، له القدرة على التأثير على الإنسان وإغوائه وإفساده وإضلاله؛ قال تعالى :"وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل" (النمل، 24). وقال أيضا: "استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله" (المجادلة، 19). وقال في سورة مريم، آية 83: "ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا"، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية الدالة على كيد الشيطان للإنسان، وإيراده المهالك، وإبعاده عن الصراط المستقيم.

إن الله سبحانه وتعالى قد خول إبليس وجنوده من الشياطين قوة كبيرة، وأمدهم بأسباب يستطيعون من خلالها إفساد البشر وإضلالهم. قال رب العزة: "قال فبما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم

شاكرين" (سورة الأعراف، 16-17). لكن ليس معنى هذا أن الشيطان يضل ويفسد ويغوي من يشاء ومتى شاء، وإنما يفعل ذلك بمن هو مهيأ نفسيا وعقديا وسلوكيا، لتلقي إيحاءاته وإغراءاته ووساوسه؛ قال تعالى: "إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين" (الحجر 42). وقال أيضا: "إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الغي ثم لا يقصرون" (الأعراف؛ 207)، وكذلك قوله تعالى: "ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين" (الزخرف؛ 36)، والآيات في هذا الصدد كثيرة.

وعندما يجد الشيطان أسوار الحصن متينة وأبوابه موصدة، لا يستطيع فعل شيء، بينما إذا كانت الأسوار مليئة بالثلم والثقوب، أو الأبواب مفتوحة على مصراعيها، فإنه يندفع إلى الداخل اندفاع السيل، ويشرع في الإفساد والهدم والتخريب. والإنسان الذي ينحرف عن سنن الفطرة، ويعرض عن تعاليم ربه المبينة في الكتاب والسنة، ويلقي بنفسه في عالم الشهوات والرذائل والأهواء والنفسية، يضعف إرادته الشخصية ويدعو الشيطان لكي يبسط سلطانه عليه، ويأخذ بناصيته ويقوده ويوجهه أنى شاء.قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان واضع خرطومه على قلب ابن آدم ، فإن ذكر الله خنس وإن نسي التقم قلبه . " أخرجه ابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى والبيهقي.

ويخيل لهذا الإنسان الذي اختار بمحض إرادته طريق الغواية والضلال، أنه يعيش في دنياه وفق مخطط وضعه لنفسه بنفسه، وأنه يحيا

حياة شخصية مستقلة، لا تتدخل فيها إرادة أحد؛ وبعبارة أوضح، فإنه يستبعد أن يكون، أثناء ممارسته للحياة، خاضعا لتأثيرات أو إيحاءات معينة صادرة عن إنس أو جن أو سواهما. في حين أن دائرة إرادته أصبحت شبه مشلولة إزاء المريد الحقيقي الذي يوجد خلف الستار، حيث يحرك الدمى وينطقها !! وبالتالي فإن هذا الإنسان المنهمك في شهواته وملذاته، الغافل عن حقيقته ومصيره، يعيش ويتحرك ويتنفس داخل ولاية الشيطان ومملكته. فالشيطان وليه وملهمه وسلطانه؛ قال تعالى: "ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا" (النساء؛ 119).

"وتأمل حكمة القرآن وجلالته كيف أوقع الاستعاذة من شر الشيطان الموصوف بأنه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس... وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإن القلب يكون فارغا من الشر والمعصية، فيوسوس إليه، ويخطر الذنب بباله، فيصوره لنفسه ويمنيه ويشهيه، فيصير شهوة، ويزينها له، ويحسنها، ويخيلها له في خيال تميل نفسه إليه، فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل ويخيل ويمني ويشهي، وينسي علمه بضررها، ويطوي عنه سوء عاقبتها، فيحول بينه وبين مطالعته، فلا يرى إلا صورة المعصية والتذاذه بها فقط، وينسى ما وراء ذلك، فتصير الإرادة عزيمة جازمة فيشتد الحرص عليها من القلب، فيبعث الجنود في الطلب فيبعث الشيطان معهم مددا لهم وعونا...

قال تعالى: " ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا""[25]

---

[25] - محمد بن قيم الجوزية؛ "بدائع الفوائد" ج 1، ص 389، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

وقد جعل الله في مقابل وسوسة الشيطان، التي هي من دواعي الشر، داعيا للخير عن طريق ملك من ملائكة الرحمن، لإيجاد التوازن في امتحان إرادة الإنسان. فقد جاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " إن للشيطان لمة بابن آدم، وللملك لمة. فأما لمة الشيطان" فإيعاد بالشر، وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك : فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد منكم ذلك فليعلم أنه من الله، وليحمد الله على ذلك، ومن وجد الأخرى فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم. ثم قرأ: "الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا""[26]. وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة، قالوا: وإياك يا رسول الله؟ قال: وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم، فلا يأمرني إلا بخير".

وإلى هذا جاءت الإشارة في قوله تعالى في سورة "ق" (وقال قرينه هذا ما لدي عتيد ألقيا في جهنم كل كفار عنيد مناع للخير معتد مريب الذي جعل مع الله إلها آخر فألقياه في العذاب الشديد قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد) (آية 50).

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم"[27] . قال الحافظ بن حجر العسقلاني: "قيل هو على ظاهره

---

[26] رواه الترمذي .

[27] - متفق عليه.

وأن الله قد أقدره على ذلك، وقيل هو على سبيل الاستعارة من كثرة إغوائه، وكأنه لا يفارقه كالدم، فاشتركا في شدة الاتصال وعدم المفارقة"[28] .

وقال ابن عباس: "الشيطان جاثم على قلب ابن آدم، فإذا سها وغفل وسوس، وإذا ذكر الله خنس"[29]. ومن هنا يتبين لنا أن الشيطان يستطيع أن يتغلغل في كيان الإنسان، ولذلك يختار القلب مكانا؛ لأنه هو القائد والأعضاء جنوده، فإذا سيطر الشيطان على القلب خضعت الجوارح.

بعد هذا الكلام المعضد بالآيات والأحاديث الصحيحة، يتضح أن الإنسان الغافل عن الله وذكره، يكون معرضا لغزو الشياطين ومكرهم وإغوائهم وإفسادهم، وبالتالي فإنه يفقد جانبا مهما من إرادته الخيرة النافعة، كما يصبح جل سلوكه صادرا عن الإرادة الشريرة الواقعة تحت تأثير الوسوسة والإيحاءات الشيطانية.

ورغم وقوع الإنسان تحت هذا التأثير الشيطاني، فإنه مسؤول تماما عن كل أفعاله، وهو المريد لها على الحقيقة، وإلا بطل كونه مكلفا وحرا في اختيار طريق الخير أو طريق الشر. قال تعالى: "وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم" (سورة إبراهيم آية 22). وأخيرا ما أتعس الإنسان الذي أعرض

---

[28] - فتح الباري (280/4).

[29] - تفسير ابن كثير (575/4).

عن الذكر، فانسلخ من الإرادة السامية المرتبطة بعبادة الخالق عز وجل، واندفع هائما على وجهه تقوده نفسه الأمارة بالسوء من خلال الإرادة الشريرة. لقد باع المسكين نفسه بثمن بخس، واستبدل جنة الذكر بمستنقع الأهواء والشهوات الفانية، وسكينة النفس بحيرتها وعذابها.

التربية الإيمانية وبناء الذات

إن مفهوم الذات كما يتصوره الإسلام، يتحدد انطلاقا من علاقة المسلم الذاتية بالشريعة السمحة، والعقيدة الصحيحة القائمة على التوحيد. فالشريعة هي المقياس للسلوك المقبول أو المرفوض، حيث إن المسلم الملتزم يحرص على ألا يكون سلوكه سلوكا عشوائيا ، وإنما يضبط كل أقواله وأفعاله وجميع معاملاته بضوابط الشريعة، كما يجتهد في التأدب والتأسي بآداب وسنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

ويرتبط مفهوم الذات في ضوء التصور الإسلامي بعنصر التوازن، حيث لا يطغى على الذات التفكير المادي والانفعالات الحادة، والانحرافات السلوكية، وتغدو في اتساق متناغم مع الشرع، دون تضاد في الأبعاد العقلية والجسمية والروحية والاجتماعية.

ويتصف مفهوم الذات في الإسلام بالايجابية، من خلال تفاعل الفرد مع الأحداث والتأثير فيها، وتوجيهها بما يرضي الله تعالى ويخدم مصلحة المجتمع، كما يرتبط بالجدية في العمل والتفاعل مع أنشطة الحياة المختلفة بكل حماس ونشاط من غير تكاسل وفتور. ثم إن مفهوم الذات في الإسلام يعلي من قيمة الإرادة الحرة، التي هي من متطلبات التكليف الشرعي، ويشجع على استعمالها في أفعال الخير، تلك الأفعال التي يستفيد منها الناس في الدنيا ويجد صاحبها الجزاء الأوفى عند الله في الآخرة.

وإذا كان المسؤلون والمفكرون والمربون في البلاد الغربية، لا يهتمون بالدين، ولا يعتبرون التدين عاملا أساسيا في بناء الذات، فإن المفكرين والمربين العقلاء، وكثيرا من المسؤولين في العالم الإسلامي، ينطلقون في تصورهم لشخصية الإنسان المسلم وذاته، من الدين الإسلامي المتجسد في الوحي الإلهي كتابا وسنة. كما يستلهمون الأعمال والنظريات والمناهج التربوية والسلوكية التي تزخر بها كتب التراث.

وغني عن البيان كما أثبت علماء تاريخ الأديان ، أن ظاهرة التدين كانت، ولا زالت، موجودة لدى جميع الشعوب القديمة والحديثة، وأن من اليسير علينا أن نجد أمما بغير علوم وفنون وفلسفات، ولكن من الصعب أن نجد أمة لا دين لها، بغض النظر عن طبيعة هذا الدين. ومدى قربه أو بعده عن الأديان السماوية.

" لقد حفلت كتابات المفكرين قديما وحديثا بدراسة موضوعية لظاهرة التدين لدى الإنسان، واعتمدوا في دراسة هذه الظاهرة على رصد تاريخي لسلوك الإنسان، منذ أقدم العصور، ووصلوا إلى نتيجة وقناعة بأن الشعور الديني هو غريزة فطرية لدى الإنسان، ظهرت آثارها عليه منذ فجر التاريخ، وكان يعبر عنها بوسائل مختلفة، بعضها مما يرفضه العقل لسذاجته، وبعضها مما يقبله العقل و لا يرفضه على الأقل، لاحتمال الصدق فيه، ومن هنا كان دور الأنبياء هاما وضروريا لتوجيه ظاهرة التدين لدى الإنسان نحو المنهج الصحيح، بحيث لا تكون

تلك الغريزة فريسة الأسطورة والخرافة، تقود صاحبها إلى التيه والضلال".[30]

وأعظم ما في الدين الصحيح؛ الإيمان القوي، فهو سره وروحه وحيويته، وليس الإيمان مجرد معرفة ذهنية بحقائقه، أو مجرد قيام الإنسان بأعمال وشعائر؛ فكم من واحد عرف وجحد، وآخر صلى وصام وهو منافق. إن الإيمان في حقيقته عمل نفسي يبلغ أغوار النفس وأعماقها، ويحيط بجوانبها كلها من إدراك وإدارة ووجدان. كما لا بد أن يقترن بالمعرفة الإيمانية إذعان قلبي وانقياد إرادي، يتمثل في الخضوع والطاعة لله ورسوله.

قال الأستاذ سيد قطب رحمه الله: " فالإيمان تصديق القلب بالله وبرسوله، التصديق الذي لا يرد عليه شك ولا ارتياب، التصديق المطمئن الثابت المستقين الذي لا يتزعزع ولا يضطرب، ولا تهجس فيه الهواجس. ولا يتلجلج فيه القلب والشعور، والذي ينبثق منه الجهاد بالمال والنفس في سبيل الله، فالقلب متى تذوق حلاوة هذا الإيمان، واطمأن إليه وثبت عليه، لابد مندفع لتحقيق حقيقته في خارج القلب. في واقع الحياة في دنيا الناس، يريد أن يوحد بين ما يستشعره في باطنه من حقيقة الإيمان، وما يحيط به في ظاهره من مجريات الأمور وواقع الحياة، ولا يطيق الصبر على المفارقة بين الصورة الإيمانية التي في

[30] – د. محمد فاروق النبهان؛ "أثر التربية الإسلامية في السلوك الاجتماعي"، كتاب "دعوة الحق"، ص 54، عدد 4، 1420-1999، المغرب.

حسه، والصورة الواقعية من حوله، لأن هذه المفارقة تؤذيه وتصدمه في كل لحظة، ومن هنا هذا الانطلاق إلى الجهاد في سبيل الله بالمال والنفس. فهو انطلاق ذاتي من نفس المؤمن. يريد به أن يحقق الصورة الوضيئة التي في قلبه، ليراها ممثلة في واقع الحياة والناس."[31]

إن بناء الذات في التصور الإسلامي، يقوم أساسا على الإيمان الصحيح المتدفق في قلب الإنسان المسلم والساري في كيانه ووجدانه، والذي يدفعه إلى تلبية أوامر الشريعة الإسلامية الغراء. وبعبارة أخرى فإن بناء الذات في هذا التصور هو بناء للشخصية المسلمة المتكاملة في نموها من الناحية الروحية والبدنية والانفعالية والوجدانية والعقلية والاجتماعية، كما أنه بناء للمسلم الصالح المؤمن بربه المتمسك بتعاليم دينه، المتخلق بالأخلاق الفاضلة، المتزن في دوافعه وعواطفه ونزعاته، الذي يحسن التكيف مع نفسه ومع غيره، والذي يدرك حقوقه وواجباته، ويتحمل مسؤوليته نحو نفسه وأسرته ومجتمعه، وأمته والبشرية جمعاء.

---

[31]- سيد قطب، "في ظلال القرآن"، ج 6، ص 3348، ط 25، دار الشروق، بيروت، 1417-1996.

درس تربوي إيماني

ذات يوم، قبل عشرين سنة خلت، بينما كنت في طريقي إلى البيت، التقيت بأحد طلبتي في كلية أصول الدين، فحياني بتحية الإسلام، وطلب مني أن أستمع لكلامه، فاستجبت، ثم قال: "لقد أحاطت بي المشاكل من كل جانب حتى هممت بالانتحار!! إني قد رسبت في الامتحان النهائي للمرة الثانية، وفقدت منحة الطالب، وتوفي أبي منذ سنة وأنا أكبر إخوتي، وليس لي مال أساعد به أمي، كما يصعب علي أن أعثر على عمل...فأنا أفكر في الموت. فقلت له: تعالى معي إلى المنزل. وبعد تناول وجبة الغذاء، هيأت لنا أم أولادي إبريقا من الشاي مع بعض الحلويات، وكنت بين الفينة والأخرى أطمئن الطالب الحيران وأردد له قول الله تعالى: "فإن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا". ثم قلت له: سأساعدك في دراستك الجامعية هذه السنة، كي تنجح، إن شاء الله، وتحصل على المنحة من جديد. كما سأقدم لك بعض النصائح والإرشادات التربوية والإيمانية، وأهدي إليك بعض الرسائل والكتب المتعلقة بتربية النفس وتزكيتها. ومن النصائح التي قدمتها له ما يلي:

_ احرص على صلاة الجماعة في المسجد.

_ عليك بقراءة جزء من القرآن كل يوم.

_ أكثر من الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم.

_ اجتنب الحرام وقول السوء والغيبة والكبر... واجتهد في التحلي بالأخلاق الحميدة.

_ أكثر من الدعاء مع الإلحاح، لاسيما في جوف الليل.

_ الزم صلة الأرحام وأحسن إلى إخوانك المسلمين ولو بالكلمة الطيبة.

بعد مرور شهر، زارني الطالب نفسه، وكان فرحا مسرورا جميل المحيا، وقال لي: لقد أنقذتني يا أستاذي من الهلاك، فقلت: أنقذك الله سبحانه وتعالى. يا أستاذي لقد بدأت الأمور تتحسن، إذ تغيرت رؤيتي لنفسي وللعالم، وبدأت أنظر إلى الأشياء والأمور نظرة تفاؤل، وقوي إيماني بالله، وصرت أحب الناس للصلاة والذكر، كما عثرت على عمل مؤقت، وسأجتهد في دراستي.

وحصل الطالب بعد ذلك على شهادة الإجازة، ثم فاجأني بزيارة أخرى بعد ما يقرب من عشر سنوات، وأخبرني بأنه قد تزوج وله أولاد ويعمل مرشدا دينيا تابعا لوزارة الأوقاف والشؤون الدينية، كما أسند إليه خطبة الجمعة، فسررت لحاله.

وقبل بضع سنوات، التقيت بأحد الإخوة الأساتذة، وبدأنا نتجاذب أطراف الحديث حتى انتهينا إلى موضوع ضعف الإيمان الذي استشرى داؤه بين المسلمين، ثم قال لي: "أسألك عن عمل يحبب إلي العبادة ويذيب قساوة قلبي". فأجبته قائلا: "عليك بالقرآن وذكر الله". فقال: "أطلب منك أن تعلمني حب القرآن والذكر والسبيل إلى تزكية النفس"، فقلت له: "اسمع يا أخي، أنت أستاذ مثلي، فاجتهد كما يجتهد المسلمون الذين

يرغبون في إزاحة غيوم الغفلة عن قلوبهم". فقال: "أريد منك نصائح عملية مكتوبة، أي برنامج عملي يتعلق بتقوية الإيمان وتزكية النفس." فقلت له: " لست شيخا تربويا صوفيا أوزع الأوراد وأعالج نفوس المريدين..." فما زال يلح، حتى كتبت له نصائح وخطوات عملية على طريق تزكية النفس.

هذا وقد حصل لي مع طلبة وأشخاص آخرين مواقف شبيهة بالموقفين المشار إليهما، حيث كنت أمام حالات متنوعة تستدعي العناية والتوجيه الإيماني.

وخلاصة القول؛ إن التربية الإيمانية وظيفة تلقائية في المجتمع الإسلامي يمارسها العلماء والفقهاء الربانيون، ولست منهم يقينا، بيد أنني أحبهم. كما يقوم بها الدعاة الصادقون والخطباء وأئمة المساجد ، وكل مسلم تتوفر فيه أوصاف معينة، ويأنس من نفسه القدرة على القيام بتلك التربية. وليست هذه التربية حكرا على شيوخ التربية من الصوفية الطرقيين كما يدعي المبتدعة.

وليراجع الباحث مثلا، المجلد السادس من كتاب "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء" لأبي نعيم، يجد فيه من كبار علماء الفقه والحديث كحماد بن سلمة، وحماد بن زيد، ومالك بن أنس، وسفيان الثوري. وفي المجلد السابع هناك مثلا شعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة والليث بن سعيد وغيرهم. وفي المجلد الثامن؛ هناك الإمام الشافعي، والإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه وغيرهم من رؤوس علماء الفقه والحديث، ممن

أدخلهم أبو نعيم في جملة الأولياء من كتابه "الحلية". معنى هذا أن هؤلاء المذكورين وغيرهم كثير، كانوا علماء الفقه والحديث، وعلماء التربية والتزكية وإصلاح النفوس، وهم في ذلك قد سلكوا طريق الصحابة والتابعين. والذين ساروا من بعدهم على دربهم، ونهجوا نهجهم إلى يوم القيامة، كانوا مثلهم؛ نماذج في العلم والفقه، وأئمة يقتدى بهم في التقوى والورع والزهد وحسن السمت. وقد كان تلاميذهم يعرفون كثيرا عن أعمالهم الروحية والإيمانية؛ من ذكر وتلاوة وقيام الليل وصيام التطوع... وقد يخبرون عن بعض كراماتهم وأحوالهم الروحية، فيتأثرون بهم، ويقتفون أثرهم بطريقة تلقائية، فيتبوؤون بدورهم منازل التقوى والصلاح والاستقامة، دونما حاجة إلى أوراد أورسوم، أو طقوس وأعراف بدعية أو علوم لدنية وكشفية كما هو الشأن عند الصوفية.

شيخ التربية ضروري أم غير لازم ؟

إن أسلوب التلقي الذي ينتهجه المريد مع شيخه الطرقي، لا يخلو من عيوب معرفية وتربوية وأخطاء تعبدية وشرعية، ذلك أن هذه العلاقة تجعل المريد محصورا في دائرة مغلقة، بحيث يكون الشيخ بمثابة النواة المركزية، والمريدون عبارة عن إلكترونات تحوم حولها. ومن ثم فإن المعارف والأفكار التي يكتسبها المريد، يستمدها من روح شيخه وشخصيته؛ إما يقظة وإما مناما، فيتشكل عنده نمط فكري واحد ينتظم من خلاله وبواسطته تصوره الوجودي والكوني، وكذا حياته الاجتماعية والدينية. وهكذا تغدو عين الشيخ المصدر الوحيد للإلهامات والإشراقات المعرفية. وبما أن المريد ينظر إلى شيخه الطرقي بعين الرضا والمحبة والتقديس، فإن عقله عاجز عن إدراك ما يمكن أن يصدرعنه من أخطاء وهفوات، وكيف يصدر ذلك عن الشيخ الكامل والقطب الرباني صاحب الأحوال والمقامات ؟!!. فالدين هو ما يفهمه شيخه، والعبادة هي التي يمارسها ويدعو إليها.

ومما له علاقة بأسلوب التلقي المشار إليه، ما يتلقاه المريد عن شيخه من الأوراد التي بواسطتها يتقوى قلبه وتصبو نفسه نحو الترقي في الأحوال والمقامات، بيد أن هذا الترقي كثيرا ما يؤدي بصاحبه إلى الوقوع في الجذب أوالفناء، مما قد يدفع به إلى العزلة التامة عن المجتمع، وهذا ما لا يحصل للمسلم الذي يذكر الله كما أمر، وكما بين

نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه، في سنته المطهرة. قال الفقيه أحمد بن تيمية: "وكذلك العباد: إذا تعبدوا بما شرع الله من الأقوال والأعمال ظاهرا وباطنا، وذاقوا طعم الكلم الطيب والعمل الصالح الذي بعث الله به رسوله، لوجدوا في ذلك من الأحوال الزكية والمقامات العلية والنتائج العظيمة، ما يغنيهم عما قد حدث من نوعه كالتغبير ونحوه من السماعات المبتدعة الصارفة عن سماع القرآن، وأنواع من الأذكار والأوراد لفقها بعض الناس"[32]

وقال الإمام الأصولي أبو إسحاق الشاطبي:

"إن اتباع الهوى طريق إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود؛ لأنه إذا تبين أنه مضاد بوضعه لوضع الشريعة، فحيثما زاحم مقتضاها في العمل كان مخوفا. أما أولا؛ فإنه سبب تعطيل الأوامر وارتكاب النواهي، لأنه مضاد لها. وأما ثانيا؛ فإنه إذا اتبع واعتيد ربما أحدث للنفس ضراوة وأنسا به، حتى يسري معها في أعمالها، ولا سيما وهو مخلوق معها ملصق بها في الأمشاج. فقد يكون مسبوقا بالامتثال الشرعي فيصير سابقا له، وإذا صار سابقا له صار العمل الامتثالي تبعا له وفي حكمه، فبسرعة ما يصير صاحبه إلى المخالفة، ودليل التجربة حاكم هنا.

وأما ثالثا؛ فإن العامل بمقتضى الامتثال من نتائج عمله الالتذاذ بما هو فيه، والنعيم بما يجتنيه من ثمرات الفهوم، وانفتاح مغاليق العلوم.

---

32 – أحمد بن تيمية؛ "اقتضاء الصراط المستقيم"، ص 282، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419.

وربما أكرم ببعض الكرامات، أو وُضِع له القبول في الأرض فانحاش الناس إليه، وحلقوا عليه، وانتفعوا به، وأموه لأغراضهم المتعلقة بدنياهم وأخراهم..."[33]

لاحظ معي أيها القارئ اللبيب كيف نبه المحقق الأصولي أبو إسحاق على هذه المسألة الدقيقة، وبين فيها أن اتباع الهوى يجر المسلم إلى المذموم، وإن جاء في ضمن المحمود. فالشيخ الطرقي الذي وضع أورادا وصيغا للذكر على طريقة غير طريقة الشرع الحكيم، وعلى منهج لا عهد لأصحابه والتابعين به، يكون قد ابتدع في أمر تعبدي وقفي لا مجال فيه للاجتهاد أو إبداء الرأي، وإن بدا له أن هذه الأوراد والأذكار تدور في فلك ما هو محمود ومحبب إلى الله سبحانه. وهذا باب من الأبواب التي سلكها كثير من السالكين والعباد فزلت فيها أقدامهم.

وفيما يتعلق بالشيخ الطرقي باعتباره شيخ تربية، أقول متسائلا : هل يتوجب على المسلم المتعلم أن يتخذ شيخا من شيوخ التربية يسلك به طريقة معينة في العبادة وتزكية النفس، أم يقتصر على شيوخ العلم والتعليم ويتفقه على أيديهم ؟.

ليس مثلي من يجيب عن هذا السؤال أو يحسم فيه، ولكني "أعطي القوس باريها" كما قال الشاعر:

---

[33]– أبو إسحاق الشاطبي؛ "الموافقات في أصول الشريعة"، المجلد 1، الجزء 2، ص 133-134، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت. .

يا باري القوس بريا ليس تحسنه

لا تفسِدَنْها وأعط القوس باريها

أقول وبالله التوفيق: ذكر عبد الفتاح أبو غدة، في هامش من هوامش تحقيقه لكتاب "رسالة المسترشدين" لأبي عبد الله الحارث المحاسبي، ما نصه:

"وقد كتب الإمام الفقيه الأصولي المحدث النظار، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي الغرناطي، صاحب كتاب "الموافقات" و"الاعتصام"، وغيرهما من الكتب النفيسة الباهرة، المتوفى سنة 790، من غرناطة قاعدة الأندلس، إلى شيخ الصوفية في عصره أبي عبد الله محمد بن عباد النفزي، خطيب جامع القرويين في مدينة فاس، المتوفى سنة 792 رحمهما الله تعالى.

كتب إليه يسأله عن مسألة وقعت في غرناطة، واختلفت فيها أنظار العلماء، وكثر فيها القيل والقال، وهي: هل على السالك إلى الله تعالى أن يتخذ لزاما شيخ طريقة وتربية يسلك على يديه؟ أم يسوغ له أن يكون سلوكه إلى الله تعالى من طريق التعلم والتلقي من أهل العلم، دون أن يكون له شيخ طريقة؟.

فكتب إليه الشيخ ابن عباد رحمه الله تعالى، كتابة العالم المنصف المخلص، فقال له ما خلاصته: كما في كتابه "الرسائل الصغرى" ص 106 وما بعدها وص 125 وما بعدها:

"الشيخ المرجوع إلي في السلوك ينقسم إلى قسمين: شيخ تعليم وتربية، وشيخ تعليم بلا تربية.

فشيخ التربية ليس ضروري لكل سالك، وإنما يحتاج إليه من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس. وأما من كان وافر العقل منقاد النفس، فليس بلازم في حقه، وتقيده به من باب الأولى. وأما شيخ التعليم فهو لازم لكل سالك.

أما كون شيخ التربية لازما لمن ذكرناه من السالكين فظاهر، لأن حجب أنفسهم كثيفة جدا، ولا يستقل برفعها وإماطتها إلا الشيخ المربي، وهم بمنزلة من به علل مزمنة، وأدواء معضلة من مرض الأبدان، فإنهم لا محالة يحتاجون إلى طبيب ماهر يعالج عللهم بالأدوية القاهرة.

وأما عدم لزوم الشيخ المربي لمن كان وافر العقل منقاد النفس، فلأن وفور عقله وانقياد نفسه يغنيانه عنه، فيستقيم له من العمل بما يلقيه إليه شيخ التعليم ما لا يستقيم لغيره. وهو واصل بإذن الله تعالى، ولا يخاف عليه ضرر يقع له في طريق السلوك إذا قصده من وجهه، وأتاه من بابه.

واعتماد شيخ التربية هو طريق الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم. ويظهر هذا من كتب كثير من مصنفيهم، كالحارث المحاسبي، وأبي طالب المكي، وغيرهما، من قبل أنهم لم ينصوا على شيخ التربية في كتبهم على الوجه الذي ذكره أئمة المتأخرين، مع أنهم ذكروا أصول علوم القوم وفروعها، وسوابقها

ولواحقها، لا سيما الشيخ أبو طالب، فعدم ذكرهم له دليل على عدم شرطيته ولزومه في طريق السلوك.

وهذه هي الطريقة السابلة؛ أي المسلوكة التي انتهجتها أكثر السالكين، أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية، وتقيدوا بهم والتزموا معهم ما يلتزمه التلامدة مع الشيوخ المربين، وإنما كان حالهم اقتباس العلوم، واستصلاح الأحوال بطريق الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض. ويحصل لهم بسبب التلاقي والتزاور مزيد عظيم يجدون أثره في بواطنهم وظواهرهم، ولذلك جالوا في البلاد، وقصدوا إلى لقاء الأولياء والعلماء والعباد"[34].

يستفاد من جواب محمد بن عباد النفزي شيخ الصوفية في عصره، أن شيخ التعليم هو المعول عليه في تحصيل العلوم والمعارف، وهو قبلة كل سالك يسلك سبيل العلم والاستقامة، ويريد التزود للدار الآخرة. والأحاديث النبوية في طلب العلم وكتبه وتحصيله وارتياد مجاله كثيرة جدا، كما أن علماء الأمة وفقهاءها كتبوا في هذا الموضوع رسائل ومصنفات عديدة، والنبي صلى الله عليه وسلم أشار في أحاديثه إلى قدر العالم وأهميته وعلو مرتبته، وكونه أفضل من العابد، لأنه يفقه الناس ويعلمهم أمور دينهم ودنياهم. وإذا تأملنا هذه الأحاديث المتعلقة بالعلم والعلماء لا نجد فيها ذكرا لشيخ التربية أو الطريقة، لأن العلماء الأتقياء

---

[34] – عبد الفتاح أبو غدة؛ تحقيق "رسالة المسترشدين"، ص 39-40، دار السلام، ط. 5، 1409-1988.

الربانيين المشار إليهم في الأحاديث النبوية، هم أولى الناس بتربية السالكين المتعلمين، فهم يقذفون في قلوب المتعلمين علوم الكتاب والسنة وغيرها من العلوم، مصحوبة بالخشية والتواضع واستحضار عظمة الله سبحانه، إلى غير ذلك من المعاني الروحية والإيمانية التي تنور قلوب أولئك المتعلمين، فيتعلمون العلوم والمعارف كما يتعلمون مبادئ التربية، والاستقامة، والأخلاق الحسنة، ومحبة الله ورسوله. لهذا جاء في نص الجواب:" وهذه هي الطريقة السابلة أي المسلوكة التي انتهجها أكثر السالكين، وهي أشبه بحال السلف الأقدمين، إذ لم ينقل عنهم أنهم اتخذوا شيوخ التربية وتقيدوا بهم، وإنما كان حالهم؛ اقتباس العلوم واستصلاح الأحوال، بطريقة الصحبة والمؤاخاة بعضهم لبعض " وفي قوله رحمه الله "اعتماد شيخ التربية هو طريقة الأئمة المتأخرين من الصوفية، واعتماد شيخ التعليم هو طريق الأوائل منهم يذكرنا بحديث النبي صلى الله عليه وسلم: " خير الناس قرني ثم الذين يلونهم "[35]. فالأولى اعتماد شيخ التعليم لأنه الأصل، أما شيخ التربية فلم يكن له ذكر في القرون الأولى، وإنما ظهر في القرون المتأخرة بسبب استشراء داء البلادة وتكاثر أصحاب الحجب والعلل النفسية، وأمراض القلوب والغفلة. ولا يفوتني أن أنوه بالنزاهة العلمية، والموضوعية التامة لهذا العالم الجليل محمد بن عباد النفزي رحمه الله، حيث لم تمنعه مشيخته الصوفية من ترجيح كفة شيخ التعليم، والانتصار للعلم والفقه، ومنح الأولوية والأسبقية لهما، في حين

---

35 – حديث صحيح رواه البخاري.

جعل دائرة شيخ التربية أو شيخ الطريقة ضعيفة جدا، لا تضم إلا "من فيه بلادة ذهن واستعصاء نفس".

فتأمل معي أيها القارئ الفطن، واستعمل ذهنك الثاقب، وانظر كيف كان علماء القرون الماضية من أصحاب الذوق الصوفي النقي يفهمون التصوف، ويقيدونه بالشريعة، ويضبطون قواعده بضوابط الكتاب والسنة، حتى تذوب ماهية التصوف في ماهية الإسلام، وتتلاشى علامات التمييز، ويبقى الحق هو ما جاء به القرآن وكلام الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه. لكن خلف من بعدهم خلف انحرفوا عن هذا النهج القويم، وجعلوا شيخ التربية أو شيخ الطريقة، أولى من شيخ التعليم. بل اعتبروا تحصيل العلوم سببا في حرمان النفس من التزكية والاستقامة والترقي في مدارج الإيمان !! أو مانعا يحول دون الوصول إلى عالم الأذواق والحقائق الروحية والمعارف الكشفية والإلهامية !!، ناهيك عن الاعتقادات الفاسدة الضالة، المتعلقة بذوات هؤلاء الشيوخ، وكراماتهم وتصرفاتهم في النفوس والعوالم !!

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله في معرض الحديث عن شيخ التربية أو الطريقة: "ومن أمكنه الهدى من غير انتساب إلى شيخ معين، فلا حاجة به إلى ذلك. ولا يستحب له ذلك، بل يكره له. وأما إن كان لا يمكنه أن يعبد الله بما أمره إلا بذلك، مثل أن يكون في مكان يضعف فيه الهدى والعلم والإيمان والدين، يعلمونه ويؤدبونه، لا يبذلون له ذلك إلا بانتساب إلى شيخهم، أو يكون انتسابه إلى شيخ يزيد في دينه

وعلمه، فإنه يفعل الأصلح لدينه. وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه، وإلا فلو طلب الهدى على وجهه لوجده"[36].

بعد أن أشار شيخ الإسلام أحمد بن تيمية إلى أن السالك ملتمس الهدى لا يلزمه "الانتساب إلى شيخ" ويقصد شيخ الطريقة، بل "لا حاجة به إلى ذلك"... نبه في آخر كلامه على مسألة التفريط، إذ قال: " وهذا لا يكون في الغالب إلا لتفريطه"، وإلا فهو طلب الهدى على وجهه لوجده". وهذا ما يلاحظ في عصرنا، إذ تجد معظم المريدين الذين يلتفون حول شيخ من شيوخ الطريقة، قد فرطوا في تحصيل العلوم والتفقه في الدين، واستثقلوا ذلك لما فيه من العناء والمشقة، واستوعروا طريق العلم، وقالوا نحن ضعفاء ولن يصلح أحوالنا إلا شيخ طريقة صوفية، ونسوا أن أول ما أمر به الله تعالى القراءة وطلب العلم، حيث يقول جل وعلا في سورة العلق: "اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم". أي أنه أوجب علينا القراءة، وتحصيل العلم، وتدبر القرآن، وفي ذلك حث على إعمال العقل، وتحريك آليات الذهن وتفعيلها، وتفجير الطاقات الروحية الكامنة في القلب بواسطة التفكير والتأمل والاستدلال، مع الاسترشاد بالوحي كتابا وسنة، والجلوس مع أولي العلم من العلماء والفقهاء الربانيين.

أما الارتماء في أحضان شيخ طرقي، والاعتماد عليه وحده في عبادة الله وصلاح النفس وتزكيتها وإبطال العمل بمقتضيات "اقرأ باسم

---

[36] – أحمد بن تيمية؛ المرجع السابق، ص 514.

ربك"، وما يتبع ذلك من تدبر وتأمل، وتحصيل وإرادة، واستغلال لآليات ومناهج المعرفة، وربط ذلك كله بفقه الواقع ووظيفة الاستخلاف، فإنه تفريط ما بعده تفريط، وتقصير في القيام بواجب تحصيل العلم والمعرفة، ويكون السالك بذلك قد طلب الهدى على غير وجهه، إذ كما قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية "لو طلب الهدى على وجهه لوجده".

ويقول الإمام الشوكاني رحمه الله في كتابه: "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، وهو يتحدث عن "ابتلاء الإسلام بالمذاهب وتقديس الأموات": "... ويلتحق بالأمرين المذكورين أمر ثالث: وإن لم تكن مفسدته كمفسدتهما، ولا شموله كشمولهما، وهو ما صارت عليه هذه الطائفة المدعوة بالمتصوفة، فقد كان أول هذا الأمر، يطلق هذا الاسم على من بلغ في الزهد والعبادة إلى أعلى مبلغ، ومشى على هدي الشريعة المطهرة، وأعرض عن الدنيا وصد عن زينتها، ولم يغتر ببهجتها، ثم حدث أقوام جعلوا هذا الأمر طريقا إلى الدنيا، ومدرجا إلى التلاعب بأحكام الشرع، ومسلكا إلى أبواب اللهو والخلاعة، ثم جعلوا لهم شيخا يعلمهم كيفية السلوك، فمنهم من يكون مقصده صالحا وطريقته حسنة، فيلقن أتباعه كلمات تباعدهم من الدنيا وتقربهم من الآخرة، وينقلهم من رتبة إلى رتبة، على أعراف يتعارفوها، ولكنه لا يخلو غالب ذلك من مخالفة للشرع وخروج عن كثير من آدابه. والخير كل الخير في الكتاب والسنة، فما خرج عن ذلك فلا خير فيه، وإن جاءنا أزهد الناس في الدنيا وأرغبهم في الآخرة، وأتقاهم لله تعالى وأخشاهم له في الظاهر، فإنه لا

زهد لمن لم يمش على الهدي النبوي، ولا تقوى ولا خشية لمن لم يسلك الصراط المستقيم. فإن الأمور لا تكون طاعات بالتعب فيها والنصب وإيقاعها على أبلغ الوجوه. بل إنما تكون طاعات خالصة محضة مباركة نافعة لموافقة الشرع، والمشي على الطريقة المحمدية.

ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنة والأصنام المستورة عن الناس، كالحسد والكبر والعجب والرياء ومحبة الثناء والشرف والمال والجاه مبلغا عظيما، وارتقى مرتقا جسيما، ولكني أكره له أن يتداوى بغير الكتاب والسنة، وأن يتطبب بغير الطب الذي اختاره الله لعباده، فإن في القوارع القرآنية والزاجر المصطفوية، ما يغسل كل قذر، ويدحض كل درن، ويدمغ كل شبهة، ويدفع كل عارض من عوارض السوء. فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء، فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا له متفهما لمعانيه، باحثا عن مشكلاته، سائلا عن معضلاته ويديم النظر في كتب السنة المعتبرة عند أهل الإسلام، كالأمهات الست وما يلحق بها. ويستكثر من مطالعة السيرة النبوية، ويتدبر ما كان يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليله ونهاره، ويتفكر في أخلاقه وشمائله، وهديه وسمته، وما كان عليه أصحابه وكيف كان هديهم في عباداتهم ومعاملاتهم. فإنه إذا تداوى بهذا الدواء ولاحظته العناية الربانية، وجذبته الهداية الإلهية، فاز بكل خير مع ما له من الأجر الكثير، والثواب الكبير، في مباشرة هذه الأسباب، وإذا حال بينه وبين الانتفاع بهذه الأمور حائل،

ومنعه من الظفر بما يترتب عليها مانع، فقد نال بتلك الأسباب التي باشرها أجرا عظيما، لأنه طلب الخير من معدنه، ورام نيل الرشد من موطنه، فكان له في تلك الأشغال من الأجر ما لطلبة علم الشرع. لأنه قد جهد نفسه في الأسباب، ولم يفتح له الباب.

وبعد هذا كله فلست أجهل أن في رجال هذه الطائفة المسماة بالصوفية، من جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المطهرة، والمشي على الطريقة المحمدية والصراط الإسلامي، مع كونه قد صار من تصفية باطنه من كدورات الكبر والعجب والحسد والرياء ونحوها، بمحل يتقاصر عنه غيره، ويعجز عنه سواه، ولكني في هذا المصنف بسبب الإرشاد إلى العمل بالكتاب والسنة، والتنفير عما عداهما كائنا ما كان. فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده، أن يتسبب إلى ذلك بسبب خارج عنهما من رياضة، أو مجاهدة، أو خلوة، أو مراقبة، أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطريقة الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم، بل يطلب علم الكتاب والسنة، ويأخذهما عن العلماء المتقنين لهما المؤثرين لهما على غيرهما، المتجنبين لعلم الرأي وما يوصل إليه، النافرين عن التقليد وما يحمل عليه، فإنه إذا فعل ذلك سلك مسلك النبوة، وظفر بهدي الصحابة، وسلم

من البدع كائنة ما كانت، فعند ذلك يحمد مسراه، ويشكر مسعاه، ويفوز بخير أولاه وأخراه"[37].

لقد أحسن الإمام محمد بن علي الشوكاني الكلام عندما تعرض لمسألة الموازنة بين سلوك المتصوفة وسلوك غيرهم ممن يتقيد بسنة النبي صلى الله عليه وسلم وسنة الصحابة والتابعين، وأثنى على أهل الطائفة الأولى قائلا: " ولا أنكر أن في هذه الطائفة من قد بلغ في تهذيب نفسه وغسلها من الطواغيت الباطنية... مبلغا عظيما"، أو قوله: " فلست أجهل أن في هذه الطائفة المسماة بالصوفية من قد جمع الله له بين الملازمة لهذه الشريعة المظهرة... . ." لكنه عقب قائلا: "فلست أحب لمن أراد القرب إلى الله والفوز بما لديه والظفر بما عنده أن... . . من رياضة أو خلوة... . . أو يأخذ عن شيخ من شيوخ الطرق الصوفية شيئا من الاصطلاحات الموصلة إلى الله عندهم... بل بطلب علم الكتاب والسنة..."

كأني بهذا العالم القدوة يعض بنواجذه على سنة نبيه، وهو يرغب الناس في طلب الهدي من الكتاب والسنة، والإعراض عما سواهما من الطرق التي قد تفضي بسالكيها إلى ما لا يحمد عقباه، لقد كان هذا العالم رحمه الله للعلم مجمعا، وللدين مفزعا، وعلما في علمه وزمانه.

---

[37] – الإمام محمد بن علي الشوكاني: "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، دار ابن حزم 1419-1998، ص 261.

وبعد، أرجو من الله سبحانه وتعالى أن يكون القارئ اللبيب ذي الرأي الثاقب قد انقدح في قلبه، واستقر في عقله، أن القدوة المثلى لا تلتمس في شيوخ الطرق الصوفية، وإنما تطلب من معدنها الجوهري وعينها الفياضة: محمد صلوات الله وسلامه عليه، وصحابته ومن على أثرهم من العلماء الربانيين إلى يوم الدين.

لكن قد يقول قائل إن العالم الرباني غدا كالكبريت الأحمر، أو دونه بيض الأنوق، فأنى لي بمن سيأخذ بيدي ويقيني المهالك؟ أقول له: لا يكون هذا الأمر مسوغا لك أن تتخذ شيخا طرقيا، يرشدك ويقيك المهالك، لأننا معشر المسلمين أمة "اقرأ"، إن فقدنا العلماء فلن نفقد القرآن لأنه محفوظ، ولن نفقد السنة لأنها محفوظة أيضا حسا ومعنى. ويستحيل أن يخلو زمان من وجود عالم رباني؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق"؛ قال محمد بن إسماعيل البخاري: "وهم أهل العلم"[38].

ثم إننا لا نقدس الشيوخ الطرقيين ولا شيوخ العلم، بل لو افترضنا خلو قرية أو مدينة من عالم رباني يسترشد به الناس، فإنه لن يكون ذلك مانعا من معرفة الحق والوصول إلى الله سبحانه وتعالى، لأن كتاب الله موجود والسنة مسطرة بين أيدينا. وهذا ما أشار إليه عالمنا النحرير

---

38 – انظر "فتح الباري، شرح صحيح البخاري"؛ باب قول النبي صلى الله عليه وسلم "لا تزال طائفة من أمتي..." من كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، ج 15 ص 9087، المكتبة العصرية، صيدا- بيروت، ط. 1 1420-2000

الشوكاني بقوله: " فأنا أحب لكل عليل في الدين أن يتداوى بهذا الدواء فيعكف على تلاوة كتاب الله متدبرا متفهما... إلى... فاز بكل خير".

ثم إن وجود الشيخ الطرقي أو العالم الرباني ليس شرطا في نجاتنا، أي أن الفوز بالجنة ليس متوقفا بالضرورة عليهما، وما أكثر المسلمين الذين شهد لهم الناس بالصلاح والاستقامة، مع أنهم لم يلازموا شيوخ الطرق ولا شيوخ العلم.

إن المنهج الصحيح لضبط السلوك وتفجير الطاقات العقلية والروحية، وتسيير السبل لتحقيق الاستخلاف، هو منهج الكتاب والسنة. لكن قوما، غفر الله لهم، آثروا شخصية الشيخ الطرقي على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم.

ولا يقولن قائل إنهم يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم، أكثر مما يحبون شيوخهم. . هذا مستحيل فلا يمكن لشخصين أن يتغلغلا في قلب واحد. قال تعالى" ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه"[39].

فمن أحب النبي صلى الله عليه وسلم حبا ملك شغاف قلبه، لا يستطيع حب غيره بنفس القوة. وكذلك من أحب شيخه وربط قلبه به، وحفظ صورته في خياله، وكان ملازما له- حيا أو ميتا- لا يفتر عنه طرفة عين، يصعب عليه أن يتوجه إلى روح نبيه صلى الله عليه وسلم بنفس الروح ويحبه بالقوة نفسها.

---

[39] - سورة الأحزاب، آية 4.

وأخيرا شتان بين من يستلهم روح النبي صلى الله عليه وسلم وشخصيته ويكثر من ذكره والصلاة عليه، ويقتفي أثره ويهتدي بهديه هدي الفطرة، وبين من يستلهم روح شيخه الطرقي وشخصيته، ويثني عليه ويمدحه ويصحبه في خياله نوما ويقظة. وشتان بين شخصية رسالية تبني رجال الدنيا والآخرة، وتؤسس أمة الاستخلاف، وشخصية طرقية مجالها الطريقة والزاوية والأوراد والطقوس، وغايتها استغفال واستعباد المريدين والأتباع.

الفصل الثاني:

بين النفس والإيمان

النفس حجاب

مرض الغفلة

في تزكية النفس وتطهيرها

الفرح قد يبدد الطاقة ويوهن الإرادة

الإنسان بين اللذات المادية واللذات الروحية

الزمن والوقت من منظور إيماني وذوقي

العقل بين الزمن النفسي الشهوي والزمن الروحي الفطري

النفس حجاب

أقرب ما يكون العبد من ربه تعالى قرب عناية وتفضل؛ قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد"[40]. فجدير بالعبد ألا تغيب الذكرى عن عقله برهة من الزمن وإن قلت، وألا يفتر قلبه عن الذكر لحظة وإن كان مشغولا بدنياه، وفي ذكر النفس نسيان الله؛"ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه" (الأحزاب 4) .

ثم إن العبد إن نظر إلى ما سوى الله، فإنه لن ينظر إلا إلى نفسه، وبذلك تكون نفسه حجابا عن الله فلن يراه، مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قال؛ عندما سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان :" أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".[41] والله لم يخلقنا إلا لنعبده، والعبادة لا تشمل شيئا دون آخر، كما أن العبودية ملازمة للمخلوق لزوم الصفاء للماء وإن سكن الكبرياء قلبه.

وتقتضي العبادة توجيه الوجه لفاطر السماوات والأرض سرا وعلانية. ومهما تنوعت طبيعة العمل، فإن الوجه يظل في وجهته التي خلق لها؛ إذ كل شيء هالك إلا وجهه. ولما كان أكثر الخلق جاهلين بقلوبهم بسبب تمكن الغفلة منهم، حيل بينهم وبين أنفسهم، لأن الله يحول

---

40 - رواه مسلم

41 - رواه مسلم

بين المرء وقلبه، وحجبوا بذلك عن التدبر في ملكوت الله والنظر في آياته.

والنفوس ثلاثة: نفس أمارة، ونفس لوامة، ونفس مطمئنة. فالأولى مذمومة لأنها تأمر صاحبها بالسوء، وتورده الموارد القبيحة، وتسعى في هلاكه، وهي عين الحجاب؛ "وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي" (يوسف 53). والثانية نفس مؤمنة لا تفتأ من توجيه اللوم لصاحبها عند تقصيره في عبادته بإعراضه عن الطاعات وإتيانه الموبقات؛ "لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة" (القيامة 1-2). أما الثالثة فهي النفس المطمئنة التي ظفرت بالأنس بالله، فطاب مقامها، وهي التي استراحت بعد طول العناء، وحفظت عهدها وميثاقها، ورجعت إلى رضوان ربها، فنعم الزاد زادها، ونعم السفر سفرها؛ "يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي على ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي". (الفجر 30-31-32).

والنفس الأمارة حجبت عن الله بانغماسها في الدنيا، ونسيانها أن هذه الدار مزرعة للآخرة، فصاحب هذه النفس؛ "أخلد إلى الأرض واتبع هواه" (الأعراف 176)، وآثر ما يفنى على ما يبقى، واطمأن إلى ذلك دون أن يعتبر بمن خذلته الدنيا بعد أن جرعته سمومها، وليت شعري كيف يقبل العبد على شهوات الدنيا، وينهمك في بناء الدور والقصور، مع أن الدنيا قنطرة للعبور. ؟

إن الإفراط في المطعم والملبس والمسكن، يجعل من هذه الأشياء الثلاثة، غاية في ذاتها بدل أن تكون وسيلة للقيام بعبادة الله، ويجعل الاهتمام منصبا على البدن دون النفس، مما يؤدي إلى ضعفها لأنها أصبحت أسيرة في سجن بدنها ومقيدة بنار شهواتها. إن تلك الأشياء خلقت لكي تحفظ البدن، الذي هو مركب للنفس، من الهلاك. فالاقتصار منها على الضروري أسلم للعبد وأصلح للعبادة والتقوى. والخروج بها عن دائرة الضرورة يجر إلى الهلاك، بسبب ما تحدثه من كثرة الاشتغال والاهتمام، فينقلب ذلك إلى هموم تتلوها هموم، وينتقل العبد من رحمة الله إلى أودية العذاب.

جاء في حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من جعل الهم هما واحدا كفاه الله هم دنياه، ومن تشعبته الهموم لم يبال الله في أي أودية الدنيا هلك"[42]. قال أحد الحكماء: "من أقبل على الدنيا أحرقته نيرانها يعني الحرص، حتى يصير رمادا. ومن أقبل على الآخرة صفته بنيرانها فصار سبيكة ذهب ينتفع به. ومن أقبل على الله عز وجل أحرقته نيران التوحيد فصار جوهرا لا حد لقيمته".

ومن ثم فإن في الدنيا موطنين لا ثالث لهما: موطن العبادة وثمرته التذكر؛ "الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور "(البقرة 256)، وموطن الشهوات وثمرته الغفلة؛ "والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت" (البقرة 256). ومن ارتحل عن أحدهما حل في الآخر. والذي

---

[42] - حديث حسن انظر صحيح الترغيب والترهيب للمنذري.

اطمأن إلى الدنيا وأسرته، خالها ساكنة مستقرة وهي تجري؛ مثلها كالظل متحرك في سكون "وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب"(النمل 88). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون".[43]

ومن خصائص النفس المحجوبة؛ انشغالها بالجزاء واستشرافها لمعرفة قبول عمل من فرض أو سنة أو غيرهما من الطاعات وأعمال البر.والأولى أن لا تكترث بذلك، إذ أن لكل عمل جزاء، كما أن لكل حركة نتائج. فلا تشتغل برؤية العمل عن رؤية المعبود، فيحبط ذلك العمل ويصبح كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، ولطالما حجب كثير من الخلق عن معبودهم بشدة اهتمامهم بعملهم وتزكيتهم له فانسلخوا من العبودية ووقعوا في الشرك الخفي من حيث لا يشعرون .

والنفس يزداد حجابها كثافة بالرياء، والله لا يقبل عمل المرائي لأنه آثر الخلق على معبوده وتعلق بهم وأعرض عنه، ودفعه إلى ذلك اعتقاده أن الإنس يملك النفع والضر، فأظهر الاستقامة والصلاح استمالة للقلوب، وعدل بوجهه عن الله حينما لا يكون بين الناس، وإن صلى ساعتئذ صلى متقاعسا. فما أجهله وما أتعسه "مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون"(العنكبوت 41). وحينما أرضى الخلق بريائه جلب سخط الله عليه واستحق منه المقت والطرد، فطبع على قلبه وهو يحسب أنه

---

[43] - رواه مسلم

يحسن صنعا فأصبح مطية لهوى نفسه وقاده هواه إلى النار. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "قال الله عز وجل من عمل لي عملا أشرك فيه غيري فهو له كله وأنا منه بريء وأنا أغنى الأغنياء عن الشرك".

ولما كانت أكثر النفوس ميالة إلى حب الظهور، وتعشق الثناء والمدح، كان الرياء ملازما لها لزوما قد تشعر به وقد لاتشعر، لذا يجدر بالعبد أن يتحلى باليقظة فإن عدوه الذي بين جنبيه لن يفتأ عن الكيد، وكلما ازدادت الغفلة تمكنا ازداد الشيطان تجبرا.

فلتكن التقوى زادك، ولتكن المراقبة عضدك، واحرص على استحضار الخشية في قلبك، وانبذ ما علق به من أدران، وايأس مما في أيدي الخلق يقربك الخالق، وإذا قربك فقد اجتباك وما ذلك على الله بعزيز. ومهما هان عليك شأن الخلق، نجوت من الغرق وركبت السفينة، وتبدد شبح الرياء. وإذا سلكت سبيل المجاهدة أعطيت دليل الهداية ومن قرع الباب فتح له.

والإنسان خلق للعبادة، فإن خرج عنها بعبادة الدنيا، خرج عن أصله وأصبح غريبا عنه وذلك عين التيه. احذر أن تكون غريبا عن أصلك وفطرتك، واحرص على أن تكون غريبا في الدنيا تفز بسعادة الدارين فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "بدأ الإسلام غريبا في الدنيا ويعود غريبا فطوبى للغرباء".[44]

---

44 - رواه مسلم

ثم إن لذة البصر تكمن في النظر إلى المخلوقات وعجائب الدنيا، فإن أثمر تدبرا سهلت معرفة الخالق ورق الحجاب، وإلا كان المبصر من الذين لهم أعين لا يبصرون بها، لأنه وقف مع المخلوقات فحالت بينه وبين الخالق فعمي. لا تنظر إلى الدنيا بعين البصر، خشية أن تسحرك وانظر إليها بعين البصيرة لعلك ترى عجبا، وإن لم تفعل فلا عذر لك "بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره". (القيامة 14-5).

احذر شروق النفس تؤمن يوم الحسرة "أن تقول نفس يا حسرتي على ما فرطت في جنب الله". واطلب غروبها تفز بالعبرة، ففي شروقها غروب الأنوار، وفي غروبها شروق الأسرار، واحملها على كتاب الله فرب كتاب سواه باطنه حجاب، واغضب عليها غضب موسى على قومه لما عكفوا على عبادة العجل، وتأس به في قوله "عجلت إليك ربي لترضى" (طه 84) ، وإلا تكن النفس عجلا فتحجب عن الله كما حجب قوم موسى بعجلهم عنه.

مرض الغفلة

قال الله عز وجل في كتابه العزيز:

"وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إليه مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ *إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ *وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ *وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ *وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ *لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ " (سورة ق 16-22).

مشهد قرآني مؤثر ورهيب، رسالة ناطقة بالإنذار والوعيد، خطاب إلهي لا تشعر بوزنه ووطأته غير قلوب المؤمنين الذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع فيهبوا، يحملهم الشوق، إلى الركوع والسجود والاستغفار، ومناجاة ربهم والناس نيام.

إن الله يعلم ما توسوس به نفسك، وما يخالج صدرك، وما تخفي وما تعلن؛ أي كل ما يجول في سرك وباطنك من خواطر وأفكار. وهو سبحانه الرقيب وأي رقيب. جعل عن يمينك ملكا وعن شمالك ملكا؛ يكتبان ما تفعله من خير أو شر. إنه كتابك؛ أنت الذي دونته وملأت صفحاته بأقوالك وأفعالك. غدا ستقرأه فتسر أو تحزن: "إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا" (سورة الإسراء 14).

ثم هجم الموت بسكراته. وما أدراك ما الموت، ويا ليت ميتا حدثك، يقظة، بهول الموت وشدته، وأخبرك ببعض ما رأى وسمع أو أحس، لعلك تنزجر أو تعتبر.

هيهات هيهات، فنحن أحياء وهم أموات. لا بل نحن أموات وهم أحياء: "يا ليتني قدمت لحياتي" (سورة الفجر 24).

"لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد".

يا عبد الله: ما الفرق بين الغفلة والموت ؟ ما ثمة فرق: "أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون" (سورة النحل 21)، "أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها" (الأنعام 122).

بعد خروج الروح، يكشف الغطاء، ويقوى البصر؛ بصر القلب وتتجلى كثير من الحقائق الغيبية، ويتبين للغافل أنه كان يلعب، فيندم ويتحسر، وتتمزق روحه ولات حين مناص.

"لقد كنت في غفلة من هذا"؛ من... ومن أن الله رقيب عليك، وأن ملائكته تكتب ما تقول وتفعل، ومن أن الموت آت، وأنك قادم على الله للحساب لأنك عبده شئت أم أبيت؛ "إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا" (مريم 93).

"لقد كنت في غفلة من هذا"...

غفل العبد فهو غافل؛ غفل فعل إرادي تام، مبني على الوعي والشعور، جامع لمعنى الإرادة. أراد العبد الغفلة، فحصل عليها وحققها، وفرح بها، وتنعم بها، واستظل بظلها، وركن إليها.

العبد فاعل مرفوع بالعبودية لله، لكنه اختار الغفلة بإرادته ، فانسلخ من شرف العبودية ، وأخلد إلى الأرض متبعا هواه.

إن هذا العبد الغافل مريد لأفعال غفلته، محب لها، تجري في كيانه مجرى الدم في جسده. يحميها ويدافع عنها إذا انتقدت. إنها كيانه وهويته وروحه.

ماذا تريد منه أيها الناصح الأمين؟ إنه لا يرغب في نصائحك ويكره أمثالك.

دائرة الغفلة، دائرة مغلقة. أحكم إغلاقها بإرادة تامة. وإسهام الشيطان في تثبيت هذه الغفلة، أمر صحيح. بيد أن الإرادة تبقى لصاحبها، واختيار الغفلة ومحتبها والتعلق بها يرجع إليه، إذ هو مكلف ومحاسب؛ "قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد" (ق 27).

ومن هنا يخطئ كثير من المسلمين الغافلين المذنبين، عندما يلعنون الشيطان ويجعلونه سببا مباشرا لما يصدر منهم من أفعال الشر.

يستفاد من قوله تعالى؛ "لقد كنت في غفلة من هذا"... فوائد وعبر منها:

أن الدنيا بزينتها ومتعها وملذاتها تؤثر سلبا في قلوب الغافلين الذين لا يستحضرون درس الابتلاء؛ "إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا" (الكهف 7)، "تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا" (الملك 1-2).

إن الانفصال القائم، في وعي وشعور العباد، بين عالم الشهادة وعالم الغيب، من أهم الأسباب المؤدية والمفضية إلى الغفلة والبعد عن الله. ذلك أن الموت وأحواله وعالم القبر، والملائكة ويوم القيامة، والميزان والصراط والجنة والنار...، كل هذه الحقائق لها وجود، كما أن لحقائق عالم الشهادة وجود. بيد أن عدم استحضار العبد لتلك الحقائق المتعلقة بعالم الغيب، وعدم التفكر فيها والانتفاع بتدبرها وتذوقها، يجعله غافلا عنها، حتى تغدو بالنسبة إليه، كأنها غير موجودة، فيحرم نفسه من ثمرات الوعد والوعيد ومن السياحة الإيمانية الروحية في فضاء عالم الغيب، ويخلد إلى الدنيا والأرض.

"فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد"...

لقد غدت الغفلة بمثابة غطاء أو حجاب يمنع العبد الغافل من رؤية الحقيقة. إنه ظلام الشهوات الكثيف، ظلام الذنوب والمعاصي؛ ظلام الكبر والغرور والعجب والحسد والرياء... ظلام الباطل وعساكره... ظلام البعد عن الله. وبعد خروج الروح يكشف الغطاء، فتفنى الشهوات الدنيوية والنفسية ويتبدد ظلامها، ويتجلى نور حقائق ما بعد الموت. ولذا

ينبغي إحداث ثقوب أو نوافذ في هذا الغطاء، كي يتسرب من خلالها نور المعاني المتعلقة بعالم الغيب، فتتنور صور عالم الشهادة في قلب العبد وتتفاعل مع معاني وحقائق عالم الغيب، فيمسي هذا العبد حيا في عالمي الدنيا والآخرة. بل ينظر إلى الدنيا بعيون الآخرة.

في تزكية النفس وتطهيرها

يحتاج كل مسلم إلى تربية إيمانية تزكيه وتطهره وترقيه، كما يحتاج الطفل إلى تربية يُنَظِّف فيها من الوسخ والخبث، ويُعَلَّم ما ينفعه، ويُحذَّر مما يضره، حتى يكبر ويصير راعياً لنفسه، عارفاً بمصالحه، قادراً على قضاء حوائجه، ثم يكبر ليصير مربياً لغيره وراعياً لغيره ومعلماً وقاضياً لحاجاته.

وكذلك تربية الإيمان في النفس، فالمربي يعمل لتطهير الإنسان من أفكاره الفاسدة وأقواله الباطلة وأعماله المنحرفة، ويدله على ما يرقيه ويزيده ويُنَوِّرُه ويزيده أجراً ومقاماً وقرباً، ويحذره مما يضرُّ إيمانه ويجنبه إياه إن استطاع، وينصحه فيما ينفعه ويقربه إليه إن استطاع، فلا يزال يزداد حتى يبلغ أعلى درجات الإيمان، ثم يصير مُصلحاً لغيره ومربياً، ويكون لصلاحه وجماله أثره في المجتمع، فإذا كان كل فرد في المجتمع مِثْلَه في صفاء فِكره وطهارة قلبه، وحُسن قوله وإخلاص عبادته، وسلامة معاملاته وجمال خُلُقه، وأناقة مَظْهَرِه وإحسانه إلى غيره، فإذا كان كل فرد في المجتمع مثلَه يكون مجتمعاً مثالياً في الحق والعدل والإحسان، والتعاون على الخير وحفظ المجتمع من كل سوء وضر، وفساد وظلم وحقد وحسد.

إن ديننا الحنيف قد اهتم اهتماما كبيرا بتربية الإنسان وتطهيره من سيئاته وإصلاحه وترقيته، وقد سمّى الله تعالى حال الإنسان بهذا الاعتبار تزكيةً. ومما يدل على أهمية التزكية أن الله تعالى جعلها من وظائف أنبيائه، فقال سبحانه: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾..{آل عمران:164}

والتزكية هي التي يستحق بها الإنسان الفلاح والجنة، فلا يكفي علم ولا عمل، ما لم يكن معه تزكية للنفس، قال تعالى: ﴿ قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها﴾..{الشمس:9-10}، وقال سبحانه: ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء مَن تَزَكَّى﴾..{طه:75،76)

إن النفس هي المحل الذي يعلم الحق، وهي المحل الذي يمكن أن يعمل بالخير، فإذا كانت النفس سيئة أو مريضة لم تنتفع بما تعلم من الحق، بل إذا كانت متكبرة معرضة عن الحق صورت الحق باطلاً، ولم تنتفع من الحق ، بل تحاربه، وإذا كانت النفس كسولة مائلة إلى الشهوات تركت الخير ولم تعمل به، لذلك كان لا بد من العناية بإصلاحها، حتى تكون مستقيمة طاهرة، لتحمل الحق وتعمل به وتتحلى به. كمثل فاكهة

طيبة وضعها إنسانٌ مع القاذورات فلوثتها وأفسدتها، فلن تبقى طيبة، إلا أن يحفظها في بيئة طيبة ويضعها في محل سليم مناسب.

إن هدف المسلم من تربية نفسه وتطهيرها وتزكيتها، أن يترقى من حال إلى حال أحسن منه، فلا يزال يرتقي مقاماً مقاماً ودرجة درجة، حتى يبلغ أعلى الرتب، فينال رتبة الإحسان والصديقية والقرب من الله والسبق إلى الخيرات، ويتحقق بالعبودية على أكمل أحوالها، ليستحق بإذن الله وفضله في الآخرة الجنةَ ورضوان الله.

إن التزكية لا تخص أفرادا معينين، بل هي مطلوبة من كل فرد في المجتمع المسلم، ولا يمكن أن ترى الأثر العظيم لتزكية النفس، حتى تظهر في المجتمع كله، فتظهر حقيقة العبودية فيه لله، وحقيقة الاستقامة، وحقيقة الخلق الراقي والأدب الرفيع، وحسن المعاملة، وغير ذلك.

ولا يمكن أن تقوم حضارة راقية تُسعِد البشرية إلا على معاملة طيبة وأخلاق راقية، وكل حضارة تنقصها الأخلاق والمعاملات الصالحة فهي مهددة بالزوال، وأذاها لشعوب الأرض وإفسادها وتهديدها بالدمار سيكون أكبر من الخير الذي تقدمه أو تُسعِد به البشرية.

والتزكية إذا وجدت في المجتمع المسلم؛ فإنها وحدها من أعظم وسائل الدعوة إلى دين الله، فإن الناس إذا رأَوْا جمال خُلق المسلم وحسن معاملته وأدبه وطيب كلامه؛ ينجذبون إليه، ويميلون إلى دينه الذي تربى عليه، وأوصله إلى هذا الجمال والرُّقيّ، ألا ترى إلى الإسلام كيف دخل كثيراً من البلاد ؛ كشرق آسيا وبعض إفريقيا ، بأخلاق تجار المسلمين وحسن معاملتهم وصدقهم. واليوم والناس يرون سوء أخلاق كثير من المسلمين، فينفرون من ديننا، ظناً منهم بأن هذه الأخلاق هي أخلاق ديننا، فصار هؤلاء المسلمون بترك أخلاق دينهم سبباً في صرف الناس عن دين الله، أصلحنا الله وغفر لنا.

وإذا زكى الإنسان نفسه صار إنساناً طيباً صالحاً جميل الأخلاق جميل الحال، صالحاً بين يدي الله، محبوباً عند الناس، مرتاح الضمير، سليم التفكير، سعيداً في دنياه وأخراه، فالتزكية تخرِّج رجلاً ربانياً طاهراً زكياً مقبولاً محبوباً.

وأهم ما يبدأ به الإنسان من الأمور العملية ليزكي نفسه ويربيها: أن يعرف حاجته للتربية، وأنه على أي حال كان؛ فإنه يستطيع أن يكون على أحسنَ من ذلك، فيبدأ بنية صادقة عازمة مخلصة لله، ينوي فيها أن يسير في طريق تزكية نفسه وتربيتها، ليُرضي ربه بذلك ويتقرب إليه. ولا يمكن أن يأخذ الإنسان كل شيء دفعة واحدة، فيجتهد أن يزيد في

الخير ويُنْقِصَ من الشر بقدر طاقته، وأول ما يُنصح به الإنسان إذا خرج من غفلته وجاء يريد أن يزكي نفسه ويربيها؛ ينصح بما يأتي:

1- طلب العلم الذي يعرف به عقيدته وأحكام أعماله القلبية والجسدية. فلا بد أن يتعلم الحد الأدنى، على الأقل، مما يجب معرفته من عقيدة الحق، ومن فِقْه الأحكام، مما يجب على كل إنسان أو يحرم عليه، ومن علم التزكية، ما يكون به سليم القلب طاهر النفس، ومن لم يكن عنده هذا الحد من العلم اشتغل في طلبه مع قيامه بما يأتي ذكره، مما تعلّمه، أو مما يستطيعه، أو مما يوجهه إليه شيخ صالح عالم صادق.

2- أن يحذر من الشرك والكفر، ويترك ما يناقض الإيمان، إذا كان واقعاً بشيء من ذلك، كمسبة الربِّ سبحانه، أو السخرية من الدين، أو مناصرة الكافرين ومحبتهم، وغير ذلك.

3- أن يحذر من المعصية والبدعة إن كان عنده شيء منها، ويحذر خاصة من ذنوب اللسان ونظر العين إلى المحرمات. ويبدأ تطهير نفسه من معاصيه وذنوبه وشهواته وانحرافاته، بالاستغفار والتوبة والندم من المعاصي والكبائر إن كان اقترف شيئاً منها، ويرد المظالم، إذ لا بد للعبد إذا أراد أن يُقبِلَ على مولاه ويطلبَ منه رحمته وهدايته؛ لا بد أن يقدِّم

اعتذاره ابتداءاً مما فرط منه من مخالفة أحكام الله وعصيانه، وذلك بالتوبة والاستغفار.

4- الاهتمام بإتيان الفرائض ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم.

5- المحافظة على الصلاة في أول وقتها، والمحافظة على صلاة الجماعة.

6- اتخاذ أوراد من القرآن والذكر والدعاء، مع الحرص على الدوام على الذكر.

7- اتخاذ صحبة من الصالحين إخواناً وشيوخاً، والحرص على مجالسهم ومجالستهم، وترك الصحبة الفاسدة إن كان له صحبة سيئة.

8- يَحْذَر من طاعة الشيطان وهوى النفس، ويهتم بمجاهدة نفسه في ترك المعاصي، وإتيان الطاعات، وما يعين على التزكية، من اعتدال في طعام ونوم، وقلة كلام.

9- الحرص على ترك الأخلاق السيئة والعادات القبيحة، ويحرص على التخلق بالأخلاق الصالحة والآداب الكريمة.

10- أن يتعرف على حقيقة الدنيا، ليخرج من قلبه التعلق بها، ويتعلم ما يعرّفه على قدر ربه وآخرته، ليتعلق قلبه بهما، ويتعلم كيف يتعامل مع الدنيا وما يأخذ منها وما لا يأخذ، حتى لا تكون سبباً في غفلة قلبه، وانشغاله عن ربه وعن العمل لجنته ورضوانه..

11- أن يبحث عن شيخ صالح عالم صادق، وإذا وجد شيخاً عالماً مربياً مستقيماً يصاحبه، ليتولى تربيته ودلالته وتعليمه من خلال دروسه ومجالسه، ولا تخلو الأرض والبلاد من صالحين، فمن صدق في البحث عنهم؛ دلَّه الله على أوليائه العالِمين العاملين، ومن لم يجد شيخاً يرتاح إليه ويثق بدينه وتربيته ولم يجد صحبة صالحة؛ فعليه بكتب التزكية المحررة وفق العلم الشرعي.

الفرح قد يبدد الطاقة النفسية ويوهن الإرادة

الفرح انفعال نفسي من الانفعالات الوجدانية الفطرية، وهو يكثر ويقل، ويقوى ويضعف عند الإنسان حسب الظروف النفسية والاجتماعية، وحسب طبيعة الشخصية ونوعها. ويكون الفرح عاملا إيجابيا في بناء الشخصية ونموها، عندما يكون خاضعا لنور العقل، ومسيجا بسياج الحكمة.

وإذا كان الانسان مفراحا؛ أي كثير الفرح، كان أدنى إلى الوقوع في حالات نفسية غير مرغوب فيها. وبعبارة أخرى؛ كلما أطلق الانسان العنان لنفسه، واسترسل مع أفراح الدنيا؛ أي امتلأ باطنه بالأفراح والسرور الدنيوية مادية كانت أم معنوية، واعتاد هذا السلوك النفسي، كان أدعى لأن يفاجأ بما يسوؤه، أو بما لا يحمد عقباه. قال تعالى مخاطبا قارون: "لا تفرح إن الله لا الفرحين" (القصص 76). وقال أيضا "هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ" (يونس 22)

ففي الآية الأولى نهي صريح عن الفرح بمتاع الدنيا وزينتها .ذلك أن قارون أعطاه الله من الكنوز "ما إن مفاتيحه لتنوء بالعصبة أولي القوة " (القصص 76)، فلم يشكر الله ولم يحسن إلى الناس، وإنما فرح فرحا

شديدا أدى به إلى التكبر والمفاخرة والطغيان .فعذبه الله بأن خسف به الأرض قال تعالى: "فخسفنا وبداره الأرض" (القصص 81).

وفي الآية الثانية، يصف الله ذلك النفر الذي ركب الفلك، وفرح بالريح الطيبة المناسبة. ثم بعد ذلك أعقبتها ريح عاصف، فكان المشهد الرهيب، المنذر بالنهاية المفجعة.

إن الإكثار من الفرح، في مشهد قارون المخسوف به، تجاوز مستوى تبديد الطاقة النفسية ووهن الإرادة، إلى مستوى فاجعة الخسف.

والمشهد الثاني لم ينته بالغرق، وإنما أنجى الله النفر، كما جاء في الآية التي بعدها. ولكن هذا يدل على أن الفرح الشديد والغفلة عن الله، كثيرا ما يؤديان إلى الوقوع في مثل هذه الكوارث، ابتلاء من الله.

لكن؛ كيف يؤدي الفرح الشديد والإكثار منه عند امتلاك الإنسان للأشياء الدنيوية، من مال أو منصب أو مكانة ...، إلى تبديد الطاقة النفسية وإضعاف الإرادة ؟

إن الانسان عندما يظفر بحظ من حظوظ الدنيا، سواء بعد بذل مجهود أو من غير توقع؛ إماأن يفرح فرحا شديدا، أو يعتدل في فرحه، أو يفرح قليلا.

ففي الحالتين الثانية والثالثة، غالبا ما يحتفظ الإنسان بالوضع النفسي الذي كان عليه قبل الظفر بذلك الحظ. أما في الحالة الأولى، فإن طاقته النفسية تكون معرضة للتبديد والضياع؛ بمعنى أن الفرح الشديد الذي تملكه، وغدا جزءا من كيانه ومصاحبا له، سيطر على وعيه وشعوره،

وتسلل إلى لا وعيه الباطني، وبالتالي فإنه كثيرا ما يجعل هذا الحظ أو الشيء الذي يفرح به، موضوع تفكيره باستمرار. فهو من جهة قد يخشى عليه الضياع والهلاك أو الزوال. ومن جهة أخرى قد يفكر في سبل تنميته، أو جعله موضوع فخر ومباهاة. أو قد يفكر بنوع من الحسد، في أشخاص يتوفرون على حظ مماثل. إلى غير ذلك من الأفكار التي قد تلقي به في الأودية والشعاب المظلمة.

إن التلذذ بموضوع الفرح، من خلال تأمله والتفكير فيه، أو النظر إليه، والذي قد يستغرق وقتا طويلا؛ أياما أو شهورا، وربما أكثر من ذلك، يستنزف الطاقة النفسية ويوهنها. فعندما ينتقل هذا الإنسان الأسير، من موضوع فرحه إلى موضوع آخر مرتبط بحياته أو مجتمعه، يفرض عليه الانخراط أو المبادرة أو المباشرة، قد يجد نفسه عاجزا لعدم توفره على الطاقة النفسية الكافية؛ يعني أن إرادته تكون حينئذ ضعيفة، ولا تقوى على تحمل أعباء الحياة.

ومما لا شك فيه أن الأبطال والعباقرة والعلماء والمصلحين، قد حققوا ما حققوه بعزوفهم عن الحظوظ الدنيوية، وعدم الفرح بما يتهافت عليه عامة الناس، حيث سخروا قدراتهم وطاقاتهم النفسية والعقلية، فيما هم مشغولون به من العلم والأعمال السامية العظيمة.

والخلاصة أن الإنسان كلما قلل من الفرح بالدنيا وحظوظ النفس ما استطاع، كان أوفر طاقة وأقوى إرادة وأمضى عزيمة.

ومن ناحية أخرى، فإن الإكثار من الفرح بالدنيا، ومن التمتع بزينتها، يفوت على الإنسان الفرح بالآخرة والتنعم بها. وشتان ما بين الفرحين والنعيمين. وإذا أردت معرفة الفرق بينهما، فاسأل التوابين الذين انتقلوا بتوبتهم من رجس الحرام إلى نعيم الحلال، ومن ذل المعصية إلى عز الطاعة، ومن شقاء اللهث وراء الدنيا إلى راحة القناعة والرضا. ومن الانصياع والاستسلام للشهوات، إلى الأخذ بزمام النفس الأمارة. بل اسأل الذاكرين الذين انتقلوا من قيظ الغفلة إلى برد اليقظة. ومن ضنك الإعراض عن الله، إلى سعة ذكره والتلذذ بمناجاته. ومن تعاسة الحيرة وألمها إلى نعيم الطمأنينة وظلالها. واسأل إن شئت الزهاد الصادقين، والدعاة المخلصين والعلماء الربانيين... ستجد أن كل هذه الطوائف المذكورة لن يستبدلوا بزينة الدنيا وزخرفها وشهواتها، بما هم مقيمين فيه من نعيم باطني كاد يشبه نعيم الآخرة، إن لم يكن جزءا منه أو صورة من صوره، بل قد صرح بذلك كثير منهم.

هذا، وإذا كان الإكثار من الفرح بالدنيا والتهافت على ملذاتها وشهواتها، كما أشرت، يضعف الطاقة النفسية، كما يوهن الإرادة خاصة فيما يتعلق بأعمال الخير والصلاح، فإن التوبة النصوح، والقناعة والرضا والإقبال على الله بالإكثار من ذكره والعمل بأوامره واجتناب نواهيه، والمحافظة على سنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، كل ذلك يجعل الطاقة النفسية الخيرة، قوية ومتدفقة، كما تقوى عند المسلم الصالح إرادة الخير والنفع لنفسه ولكافة المسلمين.

الإنسان بين اللذات المادية واللذات الروحية

تأملت أحوال الناس فيما يخص تعلقهم بالملذات والشهوات، فألفيتهم يسلكون مسالك شتى، ويذهبون في النعم مذاهب متفرقة، وهم في ذلك بين الوهم والحقيقة، فمنهم من يرغب في أشياء بعضها أقرب إلى فطرة الإنسان وطبيعته وهديه، والبعض الآخر منها لا يعدو أن يكون من قبيل اللهو والحماقة أو العجب والغرور، أو الجهل والكبر، أو الأثرة وحب الذات، أو الاستهزاء بالناس والنيل من أعراضهم، أو التهافت على زينة الدنيا، والجري وراء متاعها وزخرفها.

وإذا كان أصحاب الصنف الأول قليلين، فإن الآخرين لا يحصي عددهم إلا الله سبحانه وتعالى. ولولا ما يطمح إليه كل منهما من أنواع الملذات والشهوات، ما تحرك أحد البتة ولا سعى إلى ما يسعى إليه. بيد أن ما يثير دهشتي واستغرابي، كون أصحاب الفئة الثانية يلتمسون النعيم والسعادة في أشياء لا يقبلها العقل السليم بل تنفر منها الفطرة، كالذي يتلذذ بمشاهدة أنواع اللهو واللعب، وقد ينفق على ذلك الأموال الطائلة، أو يتلذذ بجهله وحماقته، ويفتخر بذلك ويزهو، أو يتلذذ بعجبه وغروره وكبره، أو يستشعر السعادة وهو يسخر من الناس وينال من أعراضهم. والأدهى والأمر أن كل طائفة من هؤلاء تحسب أن الملذات التي تميل إليها وتعشقها هي أفضل وأعظم أنواع الملذات.

والحقيقة أن الناس معادن كما قال النبي صلى الله عليه وسلم. "الناس معادن وخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا"[45] فمن كان معدنه نفيسا ومنشؤه كريما وتربيته طاهرة، مال بتوفيق من الله إلى ما يناسب معدنه وجوهره. ومن كان معدنه رديئا ومنبته كمنبت خضراء الدمن، سيق بحكم طبعه ومنبته، إلا أن يتداركه الله برحمته، إلى ما يلائم هواه وتنجذب إليه نفسه.

قال العلامة محمد بن قيم الجوزية رحمه الله:

"لذة كل أحد حسب قدره وهمته وشرف نفسه، فأشرف الناس نفسا وأعلاهم همة وأرفعهم قدرا، من لذته في معرفة الله ومحبته والشوق إلى لقائه والتودد إليه بما يحبه ويرضاه. فلذته في إقباله عليه، وعكوف همته عليه، ودون ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، حتى تنتهي إلى من لذته في أخس الأشياء من القاذورات والفواحش في كل شيء من الكلام والفعال والأشغال. فلو عرض عليه ما يلتذ به الأول، لم تسمح نفسه بقبوله ولا التفتت إليه، وربما تألمت من ذلك، كما أن الأول إذا عرض عليه ما يلتذ به هذا لم تسمح نفسه به، ولم تلتفت إليه، ونفرت نفسه منه.

وأكمل الناس لذة من جمع له بين لذة القلب والروح ولذة البدن، فهو يتناول لذاته المباحة على وجه لا ينقص حظه من الدار الآخرة، ولا يقطع عليه لذة المعرفة والمحبة والأنس بربه. فهذا ممن قال تعالى

---

[45]- صحيح البخاري.

فيه:"قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة" (الأعراف:32).

وأبخسهم حظا من اللذة من تناولها على وجه يحول بينه وبين لذات الآخرة؛ فيكون ممن يقال لهم يوم استيفاء اللذات: "أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها" (الأحقاف: 20).46

ولا تخلو الملذات العاجلة والشهوات الدنيوية من منغصات، بل إن كل تنعم دنيوي غير موصول بالله، يؤذي النفس ويحزنها أكثر مما يفرحها.

وهكذا فإن كل من مال إلى المباحات الدنيوية واستكثر منها، وجد مع كل فرحة ترحة، وإلى جانب كل راحة تعبا، كما قد يجد عند آخر كل لذة نغصا يزيد عليها؛ فإن الإكثار من الوطء المباح مثلا يهد البدن ويوهن النفس والإرادة، أما الوطء الحرام فأثره فيهما أشد وأنكى. وكذلك شهوة البطن إذا قويت أنزلت الأذى والضرر بصاحبها لا محالة. فالنهم يولد البشم ويجلب أمراضا كثيرة، كما قد يؤثر في الدماغ ويضعف ملكة العقل والتمييز، وقديما قيل: البطنة تذهب الفطنة.

والخلاصة أن الأضرار أو الآثار السيئة التي تعقب الإفراط في تناول اللذات المباحة أو مباشرة اللذات المحرمة، كثيرة جدا بحيث أن ذلك الشخص الذي يعانيها قد يقول: ليتني لم أفعل شيئا من هذا. وما قيل عن شهوتي البطن والفرج ينطبق على الشهوات والملذات الدنيوية

46- انظر كتاب الفوائد ص 186

الأخرى؛ من حرث وتأثيث ورياش وتشييد للقصور وتطاول في البنيان، وجمع للمال والذهب وما إلى ذلك من متاع الدنيا. حيث أن الإكثار من هذه الأشياء والتنافس فيها يكون سببا في ألوان من المشاكل والمتاعب البدنية والنفسية وتتلاشى معها اللبذة النفسية المصاحبة لامتلاك تلك الأشياء.

وليس الاستكثار من المباحات فقط يؤدي بالإنسان إلى ما ذكرت، بل حتى الاقتصار على الضروري منها قد يفضي إلى شيء من ذلك إذا لم يهتد هذا الإنسان بالكتاب والسنة، ولم يتأدب بالآداب الشرعية عند تناوله للملذات الدنيوية، ولقد أبى الله سبحانه وتعالى، إلا أن يخص عباده المتقين بالمتع والملذات الخالصة من الشوائب والأكدار؛ حيث رضوا بما يقربهم من الله، وزهدوا فيما سواه. ثم إن الملذات الدنيوية سرعان ما يرغب عنها صاحبها، بعدما يتناولها أو يقضي وطره منها، ولا يرجع إليها إلا إذا تجددت رغبته فيها. كما أن المتعة النفسية المرافقة لتناول تلك الملذات تغيب وتفنى عند الفراغ والانتهاء.

في حين إذا تعلق الأمر بلذة طلب العلم لله، والتفاني في تحصيله، أو بلذة الذكر والعبادة والمناجاة، فإن الحال يختلف ذلك أن متعهما النفسية ولذتهما الروحية لا تفنيان ولا تنقضيان، ولله في خلقه شؤون، بل إن المعاناة الصادقة في سبيل العلم، أو في سبيل القيام بأعمال البر و الطاعات، لها طعم روحي باطني مخالف تماما لطعم المعاناة من أجل

الدنيا وملذاتها، خاصة إذا لم تكن موصولة بالله عز وجل، كما يخالف طعم العسل طعم الحنظل.

ثم إن المساكين الغافلين لو علموا ما يتنعم به العابدون الذاكرون، والعلماء المخلصون والدعاة الصادقون، من لذة الذكر والقرب، وطعم الإيمان وطمأنينة النفس، لتقطعت أوصالهم، وتمزقت أحشاؤهم حسرة وندامة، لكن حيل بينهم وبين نور الهداية، وحجبوا عن السعادة الحقيقية بسبب ضلالهم وإخلادهم إلى الدنيا. كما غاب عن ذهن هؤلاء المساكين أن الحياة الطيبة والمطمئنة، هي التي تكون ثمرة الطاعة والعبودية لله، والمسارعة في الخيرات، قال تعالى: "من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة" (سورة النحل آية 97). وفي هذا يقول العلامة ابن القيم رحمه الله:

"... ولكن يغلط الجفاة الأجلاف في مسمى الحياة حيث يظنونها التنعم في أنواع المآكل والمشارب، والملابس والمناكح، أو لذة الرياسة والمال، وقهر الأعداء، والتفنن بأنواع الشهوات. ولا ريب أن هذه لذة مشتركة بين البهائم، بل قد يكون حظ كثير من البهائم منها أكثر من حظ الإنسان. فمن لم تكن عنده لذة إلا اللذة التي تشاركه فيها السباع والدواب والأنعام، فذلك ممن ينادي عليه من مكان بعيد. ولكن أين هذه اللذة من اللذة بأمر إذا خالط بشاشته القلوب، سلي عن الأبناء، والنساء، والأوطان، والأموال، والإخوان، والمساكن. ورضي بتركها كلها والخروج منها رأسا، وعرض نفسه لأنواع المكاره والمشاق، وهو متحل بهذا، منشرح

الصدر به، يطيب له قتل ابنه وأبيه وصاحبته وأخيه، لا تأخذه في ذلك لومة لائم، حتى أن أحدهم ليتلقى الرمح بصدره ويقول: فزت ورب الكعبة. ويستطيل الآخر حياته حتى يلقي قوته من يده ويقول: إنها لحياة طويلة إن صبرت حتى آكلها ثم يتقدم إلى الموت فرحا مسرورا"[47]

ثم إن الانغماس في الملذات على اختلاف أنواعها، وإطلاق العنان لشهوات النفس، ينتج عنهما حالة شبيهة بالسكر، حيث يصبح الإنسان كأنه فاقد للعقل، أو كالذي تعطلت عنده ملكة التمييز، فخبا في قلبه نور البصيرة، وطفق يعمه في ظلماته ويتخبط. وغالبا ما يقود هذا السكر صاحبه إلى الهلاك، ويورده الموارد الوخيمة، لأن قوة المطلوب والمراد حملته على الاستسلام بعد أن غيبت عقله وشلت إرادته.

وفي هذا الصدد يقول شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية رحمه الله. " ومن السكر ايضا ما يكون بحب الرياسة والمال او شفاء الغيظ فإنه اذا قوى ذلك اوجب سكرا. وانما كانت هذه الاشياء قد توجب سكرا، لأن السكر شبيه ما يوجب اللذة القاهرة التي تغمر العقل.

وسبب اللذة ادراك المحبوب، فإذا كانت المحبة قوية وادراك المحب قويا والعقل والتمييز ضعيفا، كان ذلك سببا للسكر. لكن ضعف العقل تارة يكون من ضعف نفس الانسان المحب، وتارة يكون من قوة السبب الوارد. ولهذا يحصل من السكر للمبتدئين في ادراك الرياسة والمال والعشق والخمر ما لا يحصل لمن اعتاد ذلك وتمكن فيه. ومن أقوى

---

[47]- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ص 37.

الأسباب المقتضية للسكر، سماع الأصوات المريبة من وجهين؛ من جهة انها في نفسها توجب لذة قوية ينغمر معها العقل. ومن جهة أنها تحرك النفس إلى نحو محبوبها كائنا ما كان. فتحصل بتلك الحركة والشوق والطلب، مع ما قد تخيل المحبوب وتصوره لذات عظيمة تقهر العقل أيضا ."[48]

وإذا كان الإنسان بفطرته وطبيعته يعمل على اجتناب الأشياء التي تسبب له الآلام وأنواع المشقات، ويجتهد في الابتعاد عن مواطن الهلاك، فإنه ميال إلى تعاطي الأسباب الجالبة للملذات والمتع النفسية أو المؤدية إليها. بل إن الحصول على هذه الملذات والظفر بها، كاد يصبح مقصود كل إنسان ومطلبه الوحيد. ولولا أن الشرائع الإلهية والديانات السماوية، أرشدت هذا الإنسان ووجهته الوجهة الصحيحة، واعتنت بتربية غرائزه وعواطفه، وسلكت بشهواته ورغباته مسلك الفطرة والتوازن والعبودية لكان الضلال حليفه والشقاء منزله، كما هو شأن الضالين المفسدين في كل زمان ومكان.

وهكذا فإن الله سبحانه، العليم بحقيقة الإنسان وتكوينه الروحي والمادي، لم يمنع هذا المخلوق من التنعم والتلذذ بالنعم والأشياء التي سخرها له، وإنما حذره من سوء استعمال هذه النعم، أو التنعم بها بطريقة تجعله ينحرف عن سبيل الطاعة والعبودية، ويغفل عن المعاذ والآخرة، ويضيع النعيم الذي لا يفنى في جنة المأوى. "اللذة من حيث هي مطلوبة

---

[48] - أحمد بن تيمية؛ "الاستقامة"، دار بن حزم ، بيروت، 2000. ج 2، ص 146-147.

للإنسان، بل ولكل حي، فلا تذم من جهة كونها لذة، وإنما تذم ويكون تركها خيرا من نيلها وأنفع إذا تضمنت فوات لذة أعظم منها وأكمل، أو أعقبت ألما حصوله أعظم من ألم فواتها.

فها هنا يظهر الفرق بين العاقل الفطن والأحمق الجاهل. فمتى عرف العقل التفاوت بين اللذتين والألمين، وأنه لا نسبة لأحدهما إلى الآخر، هان عليه ترك أدنى اللذتين لتحصيل أعلاهما، واحتمال أيسر الألمين لدفع أعلاهما.

وإذا تقررت هذه القاعدة، فلذة الآخرة أعظم وأدوم، ولذة الدنيا أصغر وأقصر، وكذلك ألم الآخرة وألم الدنيا.

والمعول في ذلك على الإيمان واليقين، فإذا قوي اليقين وباشر القلب آثر الأعلى على الأدنى في جانب اللذة واحتمل الألم الأسهل على الأصعب. والله المستعان".[49]

ثم إن هذه اللذة الباطنية تقوى عند صاحبها كلما ازداد تعلقا بمحبوبه أو بالشيء الذي هو مولع به، وتضعف عنده إذا رغبت نفسه عن ذلك وزهدت فيه. وبالتالي فإن الصدق في التعلق والمحبة شرط ضروري لحصول تلك المتعة النفسية أو اللذة الروحية الباطنية. ومن هنا تعب كثير من الناس ولم يظفروا بما يطمحون إليه في أمر من الأمور، لعدم وجود الصدق في الطلب والقوة في التعلق بذلك الأمر، فالإنسان الذي يدعي مثلا، محبة الناس والحرص على مصالحهم وجلب النفع لهم، مع أن

49- "الفوائد" المرجع السابق، ص 244

سلوكه على خلاف دعواه، محروم بلا ريب من اللذة الباطنية وطمأنينة النفس، وصدق المثل العربي القائل: "إنك لا تجني من الشوك العنب".

إن هؤلاء المدعين البؤساء يريدون مطلبا صعبا، بل مستحيل الوصول إليه، ذلك أنهم يريدون تحقيق مرادين متناقضين بإرادة واحدة، مما أحدث لديهم اضطرابا وحيرة على المستوى النفسي والعقلي، فمرادهم الأول إيهام الناس بأنهم يحبون الخير والنفع لهم، أو بأنهم يحبون الله ورسوله والدار الآخرة، ومرادهم الثاني: تحقيق مصالحهم وأغراضهم الشخصية ورغباتهم الدنيئة. وهذا أمر يتعذر تحقيقه بلا آلام نفسية. لأن صاحبه يلتجئ إلى أنواع من الحيل والكذب، وفنون من المراوغة والمداهنة والنفاق، وما إلى ذلك من الأساليب الشيطانية، مما يجعل اللذة الباطنية وطمأنينة النفس أمرا مستحيلا. والحقيقة أن النفس مخيرة بين إرادتين: إرادة الحق ومحبته، أو إرادة الباطل ومحبته: " ففي القلب قوتان: قوة العلم والتمييز، وقوة الإرادة والحب، كان كماله وصلاحه باستعمال هاتين القوتين فيما ينفعه، ويعود عليه بصلاحه وسعادته. فكماله باستعمال قوة العلم في إدراك الحق، ومعرفته، والتمييز بينه وبين الباطل، وباستعمال قوة الإرادة والمحبة في طلب الحق ومحبته وإيثاره على الباطل. فمن لم يعرف الحق فهو ضال، ومن عرفه وآثر غيره فهو مغضوب عليه، ومن عرفه واتبعه فهو منعم عليه"[50] .

---

[50]- محمد بن قيم الجوزية؛ "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان"، دار ابن زيدون بيروت ص 31.

نعم " إن النفس إذا لم تتصور الحق ولم تطلبه وترده، تصورت الباطل وطلبته وأرادته ولابد"، فليس هناك اختيار ثالث، وإنما نور أو ظلمة وحق أو باطل، وإذا كان أهل الضلال والباطل يتلذذون بممارستهم لضلالهم وباطلهم، ويحسبون أن ما هم فيه من النعيم! يستحيل وجوده عند غيرهم، وبالتالي فهم مأسورون في دائرة نعيمهم ولذاتهم، لدرجة أن ما يشعرون به من اللذة والمتعة النفسية، يمنعهم من الاطلاع على ما يتمتع به غيرهم من متع وأذواق، أقول؛ إذا كان أمر أهل الضلال والباطل كذلك، فإن أهل النور والحق يتمتعون بنعيم الإيمان والسكينة وطمأنينة النفس، كما أن ما يحسون به من طعم الإيمان وحلاوته، ولذة القرب والمشاهدة والمناجاة، كل ذلك يصرفهم عن التعلق أو الالتفات إلى ما دون ذلك من أنواع النعيم والملذات المباحة والمكروهة، بل المحرمة، ومن حظي بالكنز لم يعبأ بالفلس.

والخلاصة أن الإنسان مجبول على طلب الأشياء التي تجلب له الملذات والمتع بجميع أنواعها وأشكالها، بيد أنه بسبب رعونته وجهله واتباعه لهوى نفسه، يلتمس تلك الملذات في أمور ظاهرها المتعة والسعادة وباطنها العناء أو العذاب، إذ لا يلبث أن يتنعم بها ردحا من الزمن حتى تجرعه غصصا وآلاما. والله جعل الملذات والشهوات الدنيوية محكومة بالفناء والزوال كما أنها لا تستقر لصاحبها على حال؛ أي أنها بين مد وجزر، أو إقبال وإدبار، وليس للعبد أنفع من طعم الإيمان وذوقه وحلاوته، ومن اللذة الروحية الناتجة عن العبادة والطاعة

وحب الله ورسوله، وحب العلم والدعوة والنصيحة والإحسان، تلك اللذة التي لا تفنى بموت صاحبها، بل تزيد وتقوى لدى المؤمن في قبره أو برزخه، ثم تعظم يوم دخوله الجنة، ويم ينظر إلى وجه خالقه جل وعلا، فأكرم بها من منزلة، وأنعم بها من رؤية.

وإذا وفق الله الإنسان لدفع آلام الغربة النفسية العظمى، أي غربة الروح في سجن الدنيا، واكتشف لذة القرب من الله، ونعيم المعرفة الربانية وحلاوة الذكر والمناجاة، هانت عليه لذات الدنيا وشهواتها، وإن باشرها، فإنما ليستعين بها على الازدياد من لذة القرب من خالقه، وعلى نيل رضاه وكرامته، وبذلك يستريح من العناء والعذاب المتعلقين باللذات الدنيوية.

نعم إن النفس لا تقف عند حد، بل تروم من اللذات ما لا منتهى لها" وتلك طبيعة جبلت عليها، وهي أشبه ما تكون بالأكل النهم الذي يمتلئ بطنه ولا تنتهي رغبات نفسه، ولو حيزت لها الدنيا بحذافيرها ما رضيت ولا هدأت. ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن النفس عندما تنحرف عن الفطرة وتبتعد عنها، تغدو لذات الدنيا غاية في ذاتها، فتحجب عن لذات الآخرة والتي أعلاها النظر إلى وجه ربها الكريم، فتنتكس وتضطرب، ولو أنها استعملت لذات الدنيا استعمالا شريفا، واستعانت بها على الوصول إلى الله ولذات الآخرة، لطابت حياتها في الدارين.

الزمن والوقت من منظور إيماني وذوقي

"لن تتجلى لك حقيقة ذاتك ما لم تراع وقتك، فلا تخضع لزمان لكونه فانيا، ولكون روحك لن تتغير وليست فانية. وكنزك هو الحال الذي أنت فيه، وأمسك لن يعود، وغدك ليس بحاصل، وحياتك هذه حلم، والتي بعد الموت هي الحياة؛ (يا ليتني قدمت لحياتي). روحك فهمت الخطاب خارج حجاب الزمن؛ (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا)، واستعصى عليها استحضاره تحت وطأته. احفظ وقتك وتحقق بالله فيه، تسطع عليك شموس المعرفة وتحقق مراد الله من خلقك، وتفز بفرصة العمر قبل فواتها. فهو الموصل إن تحققت به، والحجاب إن غفلت عنه، وساعتك التي أنت فيها.

لا تكن مطية وقتك، بل اجعله مطيتك، وأحكم قبضتك على لحظاتك، فقد تهلك بين فتحة عين وغمضتها، والكل في قبضته فاحذره لأ نه القهار. وأطلق بصرك فيما حولك، وبصيرتك في باطنك، دون أن تشغل بسواه فتحجب عما يمكن أن تلهمه. فإن صابرت وراقبت وأحاطت بك العناية، وتم لك ذلك، رميت سلاحك وكسرت شراع سفينتك.

لا تطرد يومك بغدك، ولا تجعل نفسك تعانق ما ليس بحاصل، أو ما لم يحن بعد وقت حصوله. وإذا لم تفعل ذلك كنت غائبا، وضيعت

إمدادات وقتك، وأسأت الأدب. لأن الله لم يخلق شيئا عبثا، وآياته لم تزل تتجلى لك. ورب حضور منك يثمر علما يورثك القرب. ورب غيبة منك تثمر جهلا يورثك البعد. وإذا أنعم عليك بالقرب لم تعد تشغل بما سيأتي، لأن الذي يملك الكنز لا يعبأ بالفلس. كما أن القرب منه ينفي كل الأبعاد، فلا أثر لماضي ولا لمستقبل، ومن تعلق بجمال الله وأسر بنوره، حضر ولن يغيب."[51]

من المسلمات أو البديهيات العقلية، أن الزمان ذو أبعاد ثلاثة: ماض وحاضر ومستقبل. وهي عبارة عن ثلاث محطات مرتبطة أو ثلاث حلقات في سلسلة واحدة، والإنسان لا ينفك متنقلا بوعيه بين تلك المحطات الثلاث. فبينما هو في حاضره إذا به منجذب نحو الماضي أو هائم في فضاء المستقبل. فتجده لا يمل من اجترار بعض الأفكار المتعلقة بوقائع وأحداث معينة ماضية، لها علاقة بشخصيته؛ إما متلذذا بتذكرها إن كانت سارة، أو متألما إن كانت مقلقة أو محزنة. كما تلقاه في لحظات أخرى قد ألقى بنفسه في بحر المستقبل، وأطلق العنان لخياله كي يداعب ما يجود به ذلك البحر من نسمات وأحلام. وقد يكون استدعاء الماضي واستحضاره أو التحليق في فضاء المستقبل، مما يعين الشخص على تحقيق هدف من الأهداف أو وضع أسس لأفكار وتصورات بناءة، وهذا ما نلمسه في سير الأبطال والقادة، أو العلماء والدعاة. بيد أن عامة الناس

---

[51] - د. عبد الله الشارف، "واردات وخواطر إيمانية"، طوب بريس، الرباط 2001ص 36-37.

ممن ابتلوا بهذا الأمر؛ أي استدعاء الماضي أو التحليق في المستقبل، لا يجنون أي فائدة، بل يلحقون الأذى بذواتهم خاصة عندما يغدو ذلك الأمر وسواسا من الوساوس. وهنا تضعف شخصيتهم وإرادتهم، ويصبح وجودهم ثقلا على المجتمع.

ثم إن الشخص المريد البناء لا يلتفت إلى الماضي، أو يرنو إلى المستقبل، إلا وهو مشدود بحبل متين إلى حاضره، بل تجده لا يؤمن ولا يقدس إلا الحاضر، بحيث أن الصور والمعاني الملتقطة من الماضي أو المستقبل، سرعان ما تذوب في اللحظة الآنية، ويبقى الحاضر هو المهيمن والمطلق.

" لن تتجلى لك حقيقة ذاتك ما لم تراع وقتك...." إن من الصفات والمعاني السامية التي ينبغي للمؤمن أن يعيها ويتحقق بها؛ صفة أو معنى اليقين. واليقين من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، وأهل اليقين هم أهل الفلاح؛ قال تعالى : "والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون " (سورة البقرة 4-5). وأخبر سبحانه عن أصحاب النار أنهم لم يكونوا من أهل اليقين، قال تعالى: "وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم ما ندري ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين" (سورة الجاثية 32).

وعندما يستولي اليقين على القلب، يمتلئ نورا وإشراقا ومحبة لله، ورضا وشكرا، وتنتفي عنه الشكوك والهموم والغموم. ومن ثمراته أنه

يدعو إلى قصر الأمل والزهد والتوكل والصبر. ثم إن استحضار حال اليقين والتحقق به، وممارسته يجعلك ممسكا بناصية الزمن الحاضر أو اللحظة الآنية، أو الساعة التي أنت فيها. وما ضيع المسلم هذا الكنز إلا بضعف اليقين، ولذا تجده يحس بسرابية الزمن الحسي! الذي ينسرب من بين أصابعه انسراب المياه الجارية؛ فلا تكاد يده الإمساك بلحظة واحدة منه. إنه يفلت من بين يديه وهو في ذروة الاعتقاد بامتلاكه! يالها من مراوغة الزمن الحسي. ولو كان العبد من الموقنين بالآخرة لأفلح في إمساكه بلحظة الآن، ولاحتفظ بحضورها وعمقها وخصوبتها، بل وتجددها وتدفقها وحيويتها. لأن المسلم عندما يوقن بالآخرة فإنه يستحضرها في قلبه، ويتمثل عظمتها ومشاهدها، ويسيح في أرجائها ويشرب من رحيقها، ويتذوق نعيمها وحلاوتها، ثم يفيض على قلبه من معانيها وحقائقها ما يزيده ثباتا وأنسا ويقينا.

إن هذه المعاني والحقائق المتدفقة عندما تنسكب في شغاف قلبه ويرتوي بها كيانه، وتلهج بذكرها ألسنة خلاياه، تثمر معرفة لا عهد للعقل بها، أي لا تدخل في دائرة المعرفة العقلية، وإنما هي من ثمار المعرفة القلبية الثابتة اليقينية.

إذا كان عالم الآخرة لا يخضع لزمان ذي أبعاد ثلاثة كزماننا، لأنه عالم أبدي سرمدي موصوف بالبقاء خلافا لدنيانا الفانية، إذا كان الأمر كذلك، فلا عجب أن يتحقق المؤمن الموقن بالله في وقته وحاله، وينسلخ شعوريا من الزمن الدنيوي الفاني. لأن تمثله بصدق ويقين لعالم الآخرة

يجعله يحيا بقلبه ووجدانه في هذا العالم ولله في خلقه شؤون، وصدق رسولنا صلى الله عليه وسلم إذ قال: " كن الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[52]، في حين أن الإنسان الكافر أو الغافل، لم يفهم عالم الشهادة ولم يستفد منه، بله التشوف إلى عالم الغيب والآخرة. قال تعالى: "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون" (الروم).

إن هؤلاء الغافلين ينحصر علمهم الدنيوي في بعض ظواهر الحياة الدنيا، ويجهلون كل ما يتعلق بحقيقة هذه الحياة وباطنها، ذلك أنهم وقفوا أو رضوا بمستوى القشور والبريق، والزينة الظاهرة، فمنعهم ذلك من الغوص في الباطن لاستخراج اللآلئ واليواقيت، ولو أنهم لم يسقطوا في أسر تلك الزينة والقشور لجنوا ثمرات فكرية طيبة، بل علوما ومعارف متعلقة بباطن الحياة الدنيا، ذلك الباطن الموصول بالآخرة، أي أن التفكر في باطن تلك الحياة أو باطن عالم الشهادة، يفضي بالعبد إلى عالم الآخرة، فإذا هو متصل بربه يسبح له على الدوام، مصداقا لقوله تعالى: "يسبح لله ما في السموات وما في الأرض" بل قد يقوده سمعه الباطني، وهو في حال الخشوع والتبتل والانقطاع إلى الله، إلى الشعور بتسبيح الكائنات وتذوقه. فإذا هو ذاكر ومسبح ودائر في فلك التسبيح ذاته، ذاك الذي تدور فيه تلك المخلوقات التي استرق سمعه الباطني تسبيحها، والله على كل شيء قدير.

---

52 – رواه البخاري

وفي السياق نفسه يمكن القول أيضا: إن الله تعالى يخبرنا أن ما خلقه من زينة فوق الأرض، إنما هو محض ابتلاء أو اختبار، فمن اجتازه بسلام ولم تفتنه زهرة الحياة الدنيا أو ظاهرها، قاده موقفه الحازم إلى كهف الرحمة الذي هو بمثابة باطن الدنيا الموصول بالآخرة. إن فتية القرآن عندما أحسوا بلظى زينة الدنيا وقساوة وظلم أهلها، التجأوا إلى الكهف واعتصموا به، فسكن خوفهم وروعهم بعد أن شملتهم الرحمة، ونظروا إلى الآخرة بعين اليقين، وهكذا كلما زهد العبد في ظاهر الدنيا، رغب في باطنها أي في لبها وحقيقتها، فقادته تلك الرغبة إلى الآخرة وربطته بها، فلا يزال عاكفا عليها حتى يلقى مولاه، سبحانه ما أجله، والسر في ذلك العكوف؛ أنه انجذب إلى عالم الآخرة، تحت تأثير ذبذبات أو إيقاعات التسبيح الكوني الذي انتظم في سلكه إلى الأبد، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم مخبرا عن أهل الجنة: "ويلهمون التسبيح كما تلهمون النفس"[53].

وبعبارة أخرى يمكن القول؛ إن المسافة أو الهوة بين الكافر أو الغافل، وعالم الشهادة طويلة وسحيقة جدا. ويبدو أن هذا الإنسان لم يفهم الحقائق التي يمكن أن تستفاد من خلال التدبر في عالم الشهادة، فهذا العالم لا يوحي إليه بشيء من تلك الحقائق ولا يربطه بعالم الغيب، بل ضرب بينه وبين هذا الأخير بسور عظيم لا يستطيع خرقه، لأنه لم

---

53 – انظر الحديث في الترغيب والترهيب للمنذري.

يخرق بعد السور الذي ضرب بينه وبين عالم الشهادة. وهكذا لقد حيل بينه وبين العالمين بسبب كفره أو غلفته.

وإذا ما قارنا عقليا بين فضاء ما يقع عليه بصرنا من عالم الشهادة، والفضاء الفسيح اللامتناهي الغائب عنا وعن حواسنا، وجدنا أن عالم الشهادة لا يمثل أكثر من حبة رمل واحدة من رمال شواطئ الأرض، إذا اعتبرنا حبات تلك الرمال ممثلة لمخلوقات وكائنات وكواكب عالم الغيب، وهكذا فإن عالم الشهادة لا يساوي على المستوى الكلي شيئا إزاء عالم الغيب، ومن هنا فإن الارتباط بالعالم الثاني ونشدانه: " وللآخرة خير لك من الأولى " أقرب إلى حقيقة الإنسان ومصيره.

وما أجمل الأحاديث النبوية التي تصور الانتقال من عالم الشهادة إلى عالم الغيب والآخرة، وتحث على قطع "المسافة المتوهمة" بينهما، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر رضي الله عنهما: "كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل"[54] وقال أيضا : "مالي وللدنيا ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها" [55].

ومن ناحية أخرى، لما كان الوقت سريع الانقضاء؛ وكان ما مضى منه لا يرجع ولا يعوض، بشيء، كان أنفس وأثمن وما يملك الإنسان، فهو رأس ماله الحقيقي. إن المسلم الغافل عن هذا الكنز الثمين، سيتحسر عليه لا محالة ساعة الاحتضار؛ حين تلوح له أعلام الآخرة ويتمنى لو

---

54 – رواه البخاري

55 – حديث صحيح.

منح مهلة من الزمن، وأخر إلى أجل قريب ليصلح ما أفسد ويتدارك ما فات، قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون، وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين" (المنافقون 9).

وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم يحرصون كل الحرص، على ألا يمر يوم أو بعضه أو ساعة من الزمن، دون أن يتزودوا منها بعلم نافع أو عمل صالح، أو بمجاهدة نفس، أو إحسان إلى الغير، وكانوا يرون أن من علامة المقت إضاعة الوقت، ويقولون الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

إن الآيات والأحاديث والآثار والحكم الدالة على أهمية الوقت كثيرة لا تحصى، ومن هنا فإن العقلاء والحكماء من المؤمنين الصالحين بحرصهم الشديد كان الاستفادة من الوقت، جعلوا "الآن" هو وحده المستحق للحياة، لأنه وحده ما يمكن أن تملكه اليد وتقبض عليه دون الماضي والمستقبل.

وهكذا تغدو لحظات "الآن" بمثابة القوة المتدفقة التي تمنح الشعور بالقدرة على امتلاك الذات، والوقوف في وجه تيار الزمن الجارف، أي الماضي أو المستقبل، ومنعهما من سحق الذات، والتهام حضورها.

إن هذا الزمن بماضيه ومستقبله يكون مدمرا للذات عندما يستعمله العقل استعمالا سلبيا، وذلك بإيعاز ووحي من النفس الأمارة، فيكون من

نتائج هذا الاستعمال السيئ؛ سلب الذات حضورها الذي يحقق لها كمالها، فتنساق في أودية السكر والغيبوبة. في حين يكون بناء ومفيدا للذات، وذلك عندما يستعمله العقل المنور بنور الله استعمالا نافعا، وذلك بتنبيه ووحي من النفس اللوامة، أو النفس المطمئنة، فتكون النتيجة مزيد من وعي الذات وحضورها، لأن زمن "الآن" في هذه الحال، يستفيد من الماضي والمستقبل، بل يلتهمهما ويستوعبهما، إذ هو جامع للأزمنة في حيويتها وتواليها. معنى هذا أن الماضي المستفاد منه، أو المستقبل الباعث على العمل والاستشراف، كلاهما ينصهران، بقوة الحضور الذاتي، في بوتقة زمن "الآن". وهنا تعي ذات المؤمن في آنها الحضور الكلي للوجود، كما تتجلى لها العبودية المطلقة للكائنات فتتقمص سر الوجود والغبطة الأبدية. وإذا ما كان هناك من ماض تتألم ذات المؤمن لتذكره، فإنه الماضي النقي؛ ماضي الفردوس القديم، ماضي : " اسكن أنت وزوجك الجنة" (البقرة 4). وإذا كان هناك من مستقبل تعاني هذه الذات أشواقه وحرارته وحنينه، فإنه مستقبل التواصل المتجدد مع أصولها الأولى التي انفصلت عنها. ومن هنا كان المؤمن الحق هو ذاك الغريب الذي يعبر السبيل؛ لحظة "الآن"، الرابطة بين الفردوس المفقود والفردوس الموعود، مصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم: " كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل "

العقل بين الزمن النفسي الشهوي والزمن الروحي الفطري

زمنك فصلك عن حقيقتك، وأخضع عقلك لمحسوساتك، فشق عليك أن تعقل ما لا تلمسه، وإن عقلته فلا أثر. فإن رمت الحق؛ أي الله، وجب كسر قيد العقل المقيد، لأن الأول (وسع كرسيه السماوات والأرض) لا محدود، والثاني قيدته التجربة والنفس الأمارة. ولن تسطع عليك أنوار الحق، ما لم تتبرأ من القيد وتكسره، إذ نوره لا يرى إلا بنوره، (أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)، (ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور). وإيمانك به هو الذي زينه في قلبك (ولكن الله حبب إليكم الإيمانِ وزينه في قلوبكم). فلا تعبده بنفسك، إذ عبادتك له رحمة منه، وقد تعرف إليك قبل أن تعرفه، وبه عرفته سبحانه ما أجوده.[56]

إن المراد بالزمن في هذا النص، هو الزمن النفسي الشهوي الذي يفصل الإنسان الغافل عن حقيقته، ويحول بينه وبين عبوديته. وهذا الزمن يقابله الزمن الروحي الفطري. فالظالمون، والغافلون، والمشركون، والضالون، وغيرهم من الطوائف المنحرفة، يغيبون أو ينسلخون عن ذواتهم الحقيقية المطابقة للفطرة، بسبب انصهارهم وذوبانهم

56- عبد الله الشارف "واردات وخواطر إيمانية" طوب بريس ، الرباط ، 2002، ص47.

في ذلك الزمن النفسي الشهوي، الذي اختزل الزمن كله في الزمن الدنيوي الآني؛ الذي هو "ساعة من نهار بلاغ ". (الأحقاف 34).

ثم إن الإنسان إذا انغمس في الشهوات وركن إليها، حدثت في باطنه نشوة عظيمة ولذة قوية، مما قد يرمى به في السكر النفسي، فيفقد العقل والتمييز، حتى يقال فلان أسكره حب الدنيا، قال النبي صلى الله عليه وسلم : " حبك الشيء يعمي ويصم "57. أي يحجب عنك مساوئ وعيوب الأشياء المحبوبة لديك، كما يسد أذنيك عن سماع كلام اللائمين، أو الناصحين. وهذا السكر الذي أفقد صاحبه ملكة التمييز، وأضعف عنده قوة النفس العاقلة، جرده بالكلية عن زمنه الروحي المتميز بالإرادة الذاتية، وقوة الوعي واليقظة، والانسجام مع روح المسؤولية والاستخلاف، وألقى به في يم الزمن النفسي الشهوي المظلم؛ لا يسمع ولا يرى، لكونه مستعبداً من قبل هواه، قال تعالى : " أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون ". (الجاثية : 23).

وعندما أصبح الهوى إلها يعبد، بطلت وظيفة الحواس، وحيل بين الإنسان وبين زمنه الروحي الفطري، مما أدى إلى حصول القطيعة بينه وبين السماء فخر منها، فتخطفته مخالب الزمن النفسي الشهوي، فانساق مع لذاته ومتعه المادية، إلى أن يفيق في قبره، ولات حين مناص، أو يتداركه الله سبحانه برحمته.

---

57 - رواه الإمام أحمد في مسنده.

إن زمنك الذي فصلك إذن عن حقيقتك، وأخضع عقلك لمحسوساتك، هو زمنك النفسي الشهوي المرتبط بالماديات الفانيات، وبالأوهام والخيالات. إنه الزمن المهيمن على حياتك وكيانك، والمانع لك من معرفة الزمن الآخر الروحي الفطري، بله الاستفادة منه.

ثم إن المكوث المتواصل في هذا الزمن النفسي المسكر، يؤثر سلبا في العقل ويقيده، وقد يشله. "فإن رمت الحق؛ أي الله، وجب كسر قيد العقل المقيد"، إذ تستحيل معرفة الله وعبادته والخضوع لأوامره، بقلب ميت وعقل مغلول ومقيد. "وسمي العقل عقلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك أي يحبسه"58.

ومن أبرز أسباب ضياع العقل؛ الجهل بحقيقته، وهذا الذي يخفى على أغلب الناس؛ إذ الكل يظن أنه يحسن توظيف عقله، في حين يبدو للمدقق والمتأمل، أن العقل عند معظم البشر، يتجلى في شدة الحرص على المصلحة الدنيوية، والرغبات والأهواء والشهوات النفسية، والحذر من المخاطر المحيطة، والتفنن في أساليب النفاق، إلى غيرها من السلوكات، وكأن العقل خلق لأغراض مادية دنيوية فقط.

إن هذا التصور الخاطئ لمفهوم العقل، وهذا الاستعمال المنحرف لوظيفته، يدلان على أن الإنسان قد حاد عن فطرته، وأخلد إلى الأرض واتبع هواه. فأصبح عقله مقيدا بتلك الأهواء والضلالات والشهوات المسكرة، مما جعله أشبه بحيوان يعيش داخل كهف مظلم، لأن نور العقل

58- ابن منظور، لسان العرب، مادة عقل.

المنبعث من القلب المنيب، قد انطفأ بفعل الأهواء والشهوات والتعلق بالزمن النفسي الشهوي الآني.

إن القطيعة التي حصلت بين القلب المنيب والعقل بسبب الأهواء والشهوات والضلالات، قيدت ذلك العقل وأفقدته وظيفته، وهام الإنسان على وجهه.

الفصل الثالث:

التربية الإيمانية من خلال السنة النبوية

السنة النبوية روح القدوة الصحيحة

الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم

محبة الرسول صلى الله عليه وسلم

محبة الصحابة رضوان الله عليهم

سكون النفس في سكون الليل

السنة النبوية روح القدوة الصحيحة

القدوة كلمة حسنة وجميلة، تحمل معاني دينية وخلقية ومعرفية، لا حدود لها. ولقد أتى على الإسلام زمن، كان المسلمون فيه يمارسون معاني القدوة، ويجسدونها في حياتهم التربوية والثقافية والاجتماعية، فكانوا مثالا يحتذى في ميادين العلم والمعرفة والسياسة والتربية. وسرت في كيانهم تلك المعاني بعد أن آمنوا بعقيدة التوحيد، وآثروا حب الله عز وجل، وحب نبيه صلوات الله وسلامه عليه، على كل محبوب حتى أنفسهم، واندفعوا مسترشدين بالوحي القرآني والسنة النبوية، يفجرون الطاقات الكامنة في بواطنهم، ويوظفونها في بناء أحسن مجتمع إنساني، بل أفضل حضارة عرفها التاريخ البشري. ثم أتى عليهم زمن أصيبوا فيه بالوهن، وغدوا غثاء كغثاء السيل، فأخلدوا إلى الأرض واتبعوا أهواءهم وضعفت في نفوسهم القيم الإسلامية، وأصبحت معاني القدوة الصحيحة وغيرها من معاني القيم الإسلامية أثرا بعد عين.

وجاء الغزو الاستعماري والمسلمون ضعفاء جبناء، بسبب بعدهم عن الكتاب والسنة، فلم يستطيعوا مواجهة العدو، بل استسلم كثير منهم لهذا القدر، واعتبروا الأمر خارجا عن حدود طاقاتهم، بما فشا فيهم من روح الكسل والتواكل.

ثم إن المطلع على تاريخ الأمة الإسلامية؛ بدءا من القرن الثامن الهجري إلى زمن الاستعمار الأجنبي، يصطدم بحقيقة مرة ومؤلمة؛ ألا

وهي تطور ظاهرة التصوف الطرقي، وانتشار الزوايا والمؤسسات الصوفية الطرقية، وما يرتبط بذلك من نظم المشيخة، والعادات، والأعراف، والطقوس المتعلقة بحياة المريدين وتربيتهم. وفي مقابل ذلك خفت صوت العلم وخبت جذوة ناره، وضعف الاجتهاد الفقهي، وتوقفت عجلة الثقافة عن الإبداع واستقراء السنن الاجتماعية والتاريخية، وأصاب الشلل كافة النواحي الدينية والاجتماعية والعلمية، وحلت القدوة الصوفية الطرقية محل القدوة العلمية الربانية التي كانت تنهل من مشكاة النبوة.

لقد أرسل الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم، بالهدى ودين الحق بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فختم به الرسالة وهدى به من الضلالة، فأشرقت برسالته الأرض بعد ظلماتها، وتألفت بها القلوب بعد شتاتها، فأقام بها الملة العوجاء، وأوضح بها المحجة البيضاء. ولولا الرسالة لم يهتد الإنسان إلى تمييز النافع من الضار، ولا الصالح من الطالح، ولم يتبين حقيقة بدايته ونشأته وحقيقة نهايته ومعاده، ولا سبب وجوده وجوهر حياته، ولا اطلع على أخص أوصافه وهو وصف العبودية، كما أن الأنبياء هم الأدلاء على ذات الله وصفاته، وهم الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله تعالى معرفة صحيحة لا يشوبها جهل ولا ضلال، وأن هذه المعرفة لا يستقل بها عقل، ولا يغني فيها ذكاء، ولا تكفي فيها سلامة الفطرة، يقول العلامة أحمد بن تيمية:

"الرسالة ضرورية للعباد، لابد لهم منها، وحاجتهم إليها فوق حاجتهم إلى كل شيء، والرسالة روح العالم ونوره وحياته، فأي صلاح للعالم إذا عدم الروح والحياة والنور؟ والدنيا مظلمة ملعونة إلا ما طلعت عليه شمس الرسالة، وكذلك العبد ما لم تشرق في قلبه شمس الرسالة وينالة من حياتها وروحها فهو في ظلمة؛ وهو من الأموات."[59]

"وليست حاجة أهل الأرض إلى الرسول كحاجتهم إلى الشمس والقمر والرياح والمطر، ولا كحاجة الإنسان إلى حياته؛ ولا كحاجة العين إلى ضوئها والجسم إلى الطعام والشراب؛ بل أعظم من ذالك؛ وأشد حاجة من كل ما يقدر ويخطر بالبال، فالرسل وسائط بين الله وبين خلقه في أمره ونهيه، وهم السفراء بينه وبين عباده."[60]

يستفاد من كلام الفقيه أحمد ابن تيمية، أن الحياة الصالحة والنافعة؛ إنما تحصل باتباع الرسالة، والاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، وأن الإعراض عن ذلك يجعل الإنسان ميتا وهو يحسب نفسه حيا. قال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وأنه إليه تحشرون"[61]. فمن استجاب لله وللرسول كان من الأحياء، وإن مات وفارق الدنيا. كما أن أكمل الناس حياة في الدنيا والآخرة، أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه

---

[59]– أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى ج 19 ص 93

[60]– أحمد بن تيمية، مجموع الفتاوى ج 19 ص 101

[61]– سورة الأنفال، آية 24.

وسلم، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله وللرسول ظاهرا وباطنا.

قال العلامة المحقق القاضي أبو الفضل عياض السبتي:" قال جعفر بن محمد؛ أي جعفر الصادق: علم الله تعالى عجز خلقه عن طاعته... ، فأقام بينه وبينهم مخلوقا من جنسهم في الصورة، ألبسه من نعته الرأفة والرحمة، وأخرجه إلى الخلق سفيرا صادقا، وجعل طاعته طاعته، وموافقته موافقته، فقال تعالى: "من يطع الرسول فقد أطاع الله" (النساء، آية 80) قال أبو بكر محمد بن طاهر: زين الله محمدا صلى الله عليه وسلم بزينة الرحمة. فكان كونه رحمة وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق، فمن أصابه شيء من رحمته فهو الناجي في الدارين من كل مكروه، والواصل فيهما إلى كل محبوب، ألا ترى أن الله تعالى يقول: "وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين" (الأنبياء 107)"[62]

لا شيء أنفع للمحافظة على المقومات الذاتية للمسلم وعلى أصالته، والارتقاء بسلوكياته وأخلاقه، ولتحقيق أمنه وسعادته في الدنيا والآخرة، من سنة الرسول محمد صلوات الله وسلام عليه وعلى آله. ولقد ضلت البشرية وما زالت، عندما ظنت أن الأمن والسعادة يمكن جلبهما وتحقيقهما اعتمادا على العقل وحده، فتكسرت معاول الفلاسفة والعباقرة ومدعي الحكمة، على صخور الحقيقة الشماء، وخارت قواهم من فرط

62– القاضي أبو الفضل عياض السبتي: "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" دار الكتب العلمية بيروت 2000/1420 الجزء الأول ص 18

البحث والتنقيب، وأنهكهم الكبر والعجب والغرور، فحالت حجب النفس بينهم وبين المعرفة الصحيحة. وهل لغير الخالق القدرة على الإحاطة بطبيعة الإنسان وجلب المنافع له ودفع الأضرار عنه؟ لا ورب السموات والأرض.

إن المعرفة الصحيحة بالإنسان، ينبغي أن تستمد من خارج نطاق العقل الإنساني، أي من الوحي الإلهي المتجسد في الرسالة النبوية.

والسنة المطهرة قسمان: واجب ومستحب، والأول لا يمكن تركه، والثاني إما متعلق بالعبادات والمعاملات، أو مرتبط بالآداب النبوية الشريفة. فالمسلم الذي يحافظ على السنة الواجبة ويجتهد في ممارسة السنة المستحبة، حتى تتحول عاداته إلى عبادات، فإنه يستفيض من نور الأدب النبوي، وتكون حياته مرتبطة بحياة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم. ورسولنا أولى الناس بالتقليد والاتباع، لما في ذلك من الحكمة والمصلحة الشخصية والاجتماعية. ومن لم يتبع السنة متكاسلا عنها، فهو في خسران مبين. ومن لم يتبعها غير مكترث بها، فقد جنى على نفسه جناية كبرى. أما من ينتقدها أو ينتقص من قدرها، فهو في ضلالة عظيمة.

ولما كانت خِلقة الرسول صلى الله عليه وسلم، في أحسن تقويم وأفضل وضع وأعدله، وأكمل صورة وأبهاها، وكانت شخصيتة صلوات الله عليه مثالا للصفات الحسنة والأخلاق السامية، فإن جميع ما يصدر منه من حركات وسكنات، وأقوال وأفعال، يسير وفق الاعتدال والاستقامة

والوسطية، ويهدف إلى معاني الاستخلاف كما يهدف على معاني العبودية في أبهى وأجمل صورها وتجلياتها.

قال الفقيه العلامة القاضي أبو الفضل عياض السبتي: " وقد اختلف المفسرون في معنى قوله تعالى في أم الكتاب "اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم"، فقال أبو العالية والحسن البصري: الصراط المستقيم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخيار أهل بيته وأصحابه، حكاه أبو الحسن الماوردي، وحكى مكي عنهما نحوه، وقال هو رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحباه أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وحكى أبو الليث السمرقندي مثله عن أبي العالية في قوله تعالى (صراط الذين أنعمت عليهم)، قال فبلغ ذلك الحسن فقال صدق والله ونصح"63

كيف لا وقد تم اصطفاؤه صلوات الله عليه، والبشرية لا أثر لها، وأحبه الله وأعلى منزلته ولما يخلق ويبعث، وبشر به عيسى عليه السلام قومه، بل مدحه الله تعالى قائلا: " وإنك لعلى خلق عظيم" (القلم 4). وقوله كلامه، وكلامه من صفاته، وصفاته من ذاته، فأعظم بها من منزلة، وأكرم بها من نعمة.

كيف لا وقد جمع صلوات الله وسلامه عليه شرف الأخلاق إلى شرف الأعراق، وكرم الآداب إلى كرم الأنساب. كما أنه صلى الله عليه وسلم "ذرع الأمة وحصنها ولسان الشريعة، وقرارة الأدب والعلم، ومجمع الدراية والفهم، وخلقه لو مزج به البحر لنفى ملوحته، وصفى

---

[63]- الشفا بتعريف حقوق المصطفى... ... الجزء 1 ص 22

كدورته، خلق كالرحيق مزاجه التسنيم، خلق كنسيم الأسحار، على صفحات الأنوار، يمشي في أقصد الطرق، ويأخذ بأرشد الخلق، قد أتاه الله قوة بصيرة، وحسن سريرة، أعرض عن الدنيا، وقد عرضت له بزينتها، وصد عنها وقد قصدت له في تحليتها، كما أنه صلى الله عليه وسلم غذاء الحياة ونسيم العيش، وقوة النفس ومادة الأنس"[64]

ولقد بين الإمام أحمد بن تيمية أن " طريقة أهل السنة، اتباع آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال:"عليكم بسنتي" إلى آخر الحديث. فهم إنما سموا بأهل السنة لهذا المعنى، وسموا أهل الجماعة لأن الجماعة هي الاجتماع، وضدها الفرقة، نسبة إلى الأصل الثالث وهو الإجماع، ويقصد به الإجماع المنضبط وهو ما كان عليه السلف الصالح إذ بعدهم كثر الاختلاف، وافترقت الأمة"[65]

وقال أيضا: "الحق دائما مع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآثاره الصحيحة، وأن كل طائفة تضاف إلى غيره إذا انفردت بقول عن سائر الأمة، لم يكن القول الذي انفردت به إلا خطأ، بخلاف المضاف إليه أهل السنة والحديث، فإن الصواب معهم دائما، ومن وافقهم كان الصواب

---

[64]– مقتطف من "لباب الآداب"لأبي منصور عبد الملك الثعالبي، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1 1424-2003. ص 209-210.

[65] – أحمد بن تيمية؛ مجموع الفتاوى، ج3 ص157

معه دائما لموافقته إياهم... فإن الحق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن كان أعلم بسنته وأتبع لها كان الصواب معه. "[66]

ولما أعرض كثير من الطوائف الكلامية، والفلسفية، والصوفية، والحلولية والطرقية، عن النظر في الأحاديث النبوية الصحيحة والاحتكام إليها، استعملوا آلة التأويل واندفعوا يؤولون جملة من الآيات القرآنية، مسترشدين في ذلك بأهوائهم وعواطفهم، وبآراء ومعتقدات تسربت من ملل وعقائد وفلسفات أجنبية.

قال العلامة أبو إسحاق الشاطبي" "وإنما وقع الخروج عن السنة في أولئك لمكان إعمالهم الرأي وإطراحهم السنن وذلك أن السنة، كما تبين، توضح المجمل، وتقيد المطلق، وتخصص العموم، فتخرج كثيرا من الصيغ القرآنية عن ظاهر مفهومها في أصل اللغة، وتعلم بذاك أن بيان السنة هو مراد الله تعالى من تلك الصيغ، فإذا طرحت واتبع ظاهر الصيغ بمجرد الهوى، صار صاحب هذا النظر ضالا في نظره، جاهلا بالكتاب خابطا في عمياء لا يهتدي إلى الصواب فيها؛ إذ ليس للعقول من إدراك المنافع والمضار في التصرفات الدنيوية إلا النزر اليسير. "[67]

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله بتعلم السنة والفرائض واللحن أي اللغة، وقال إن ناسا يجادلونكم، يعني بالقرآن، فخذوهم بالسنن فإن أصحاب السنن أعلم بكتاب الله"[68]

---

[66] – أحمد بن تيمية؛ منهاج السنة، ج3 ص46

[67]– الموافقات المجلد الثاني الجزء الرابع ص 15

[68]– الشفا بتعريف حقوق المصطفى ن الجزء الثاني ص 9

وقال عبد الله بن مسعود: " الاقتصاد في السنة خير من الاجتهاد في البدعة، وقال بن كعب رضي الله عنه: عليكم بالسبيل والسنة، فإنه ليس من عبد على سبيل وسنة ذكر الله ففاضت عيناه من خشية الله فمسته النار أبدا. وإن اقتصاداً في سبيل وسنة خير من اجتهاد في خلاف سبيل وسنة.

" وقال الأوزاعي رضي الله عنه: اصبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم"[69]

"وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لست تاركا شيئا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ"[70]

إن هذه النصوص وأمثالها تنبه القارئ الفطن على مدى حرص السلف الصالح، رضي الله عنهم، على احترام السنة وتقديسها، والتفاني في حبها والعمل بمقتضاها والاحتكام إليها، والتواصي بالصبر عليها، ونبذ طريق أهل التأويل والبدع. بل إن الخليفة الأول رضي الله عنه عندما قال: "... إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ"، ليعبر بكلام جامع مانع عن مفهوم القدوة عند جمهور المسلمين، وعن قوله تعالى: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة" (الأحزاب 21). فشدة

---

[69]– عبد الرحمن أبو بكر السيوطي: " الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع" تحقيق مصطفى عبد القادر عطا/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1988/1408/ ص 12-13

[70]– الشفا، المرجع السابق ج 2- ص 12.

محبته لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، واعتقاده الراسخ في أن السعادة متعلقة بها، والنجاة منوطة باتباعها، كل ذلك جعله يخشى ويخاف الزيغ إن هو ترك شيئا منها. والزيغ لغة هو الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار، ويقال زاغ يزيغ زيغا إذا ترك القصد ومنه قوله تعالى: " فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم" (الصف 5).

إن هذا الخليفة الجليل يعتبر أن ترك شيء من السنة، قد يكون سببا في الخروج عن الجادة والقصد، أو في ذهاب شيء من العقل، وبالتالي قد يؤدي بالمسلم إلى نوع من الانحراف. نعم إنه رضي الله عنه على الرغم مما عرف به من فطنة، وحلم، ورجاحة عقل، ورأي ثاقب وأصيل، فإنه كان يجتهد في الاهتداء بالسنة في كل صغيرة وكبيرة، وموقفه رضي الله عنه من أصحاب الردة خير دليل على ذلك، إذ لو احتكم إلى العقل والرأي والحكمة والوضع السياسي، لكان سلك سبيلا آخر، ولهذا قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما اعترض عليه:"... . والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على ذلك". [71]

إن أبا بكر رضي الله عنه، عندما يخاف على نفسه أن يقوم بعمل، أو يسلك مسلكا يكون العقل وحده فيه قائدا، فإنه ينطلق من قناعة راسخة؛ مفادها أن سنة من لا ينطق عن الهوى أولى بالاتباع والاسترشاد، حتى

---

[71]– "إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء" الشيخ الخضري / دار الفكر العربي بيروت/1992 ص 25.

في أدق الأمور. ومن هنا فليس المسلم الذي يتخذ محمدا صلى الله عليه وسلم قدوة، ويغترف من عين السنة النبوية ويهتدي بهد يها، ولا يعترض عليها، كالمسلم الذي يتخذ شيخا طرقيا قدوة، ويغترف من عين عقله وروحه، ويقتدي بسلوكه ولو كان سلوكا بدعيا.

هذا ويستفاد أيضا من قول أبي بكر رضي الله عنه: "... . إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ " أن تمام العقل مشروط بتمام السنة والهدي النبوي، أي كلما كان المسلم أعلم بالسنة، وأحفظ لها وأحرص على فعلها وممارستها، كان عقله أقرب إلى التمام والكمال والفكر الصحيح. ولذا نفى الله العقل عن المشركين والكافرين، قال تعالى." وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير" (الملك 10). وقال أيضا: " تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون" (الحشر 14).

فنور العقل من نور السنة، وظلامه من ظلام الكفر أو الجهل أو البدعة."قال أبو عثمان الحيري: من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه نطق بالبدعة"[72]

كما أن المسلم الذي لا يحرص على اتباع السنة وتعظيمها، يوشك أن يقع في البدعة، خاصة إذا كان إلى الجهل أميل. كما أن نور السنة إذا دخل القلب وسطع في جوانبه، بدد كل ما فيه من ظلمة الضلالات

[72] – أبو بكر جابر الجزائري؛ "هذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم "، المكتبة العصرية صيدا، 1420-1999، ص 366.

والبدع، فكذلك ظلام البدعة إذا تمكن من القلب، نفى عنه كل ما له علاقة بنور السنة.

" قال سفيان الثوري رحمه الله: البدعة أحب إلى إبليس من المعصية، المعصية يتاب منها، والبدعة لا يتاب منها. وقال الفضيل بن عياض: من جلس إلى صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإيمان، أو قال الإسلام، من قلبه"[73]. ثم إن ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم من جنس العبادات ولم يفعله، مع وجود المقتضي لفعله على عهده صلى الله عليه وسلم، ففعله بدعة، وتركه سنة، كالاحتفال بالمولد وإحياء ليلة الإسراء والمعراج، والهجرة، ورأس السنة، ونحوها، يدل لذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد"[74]

وخلاصة القول؛ إن إقامة السنة ومراعاتها والحفاظ عليها، يجعل الإنسان المسلم يحيا دائما في حال من الوعي الداخلي، واليقظة الشديدة وضبط النفس. ثم إن الانضباط السلوكي وفقا لتعاليم الرسول صلوات الله وسلامه عليه، المبثوثة في سنته الغراء، يقوي إرادة المسلم ويضاعف من طاقاته العقلية والروحية، فيغدو أكثر نشاطا وفاعلية ونفعا، وأقدر على القيام بوظيفة الاستخلاف. كما يساعده على التخلص من الأعمال والعادات والسلوكات التي تعرقل النشاط الإنساني، وتحول دون التعلم

---

[73]– السيوطي: الأمر بالاتباع. . المرجع السابق ص 19.

[74] – رواه مسلم.

والتقدم. وهكذا من خلال إقامة السنة والحفاظ عليها، ومن خلال ذلك الانضباط السلوكي وفقا لمبادئها وتعاليمها، تصبح شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم متغلغلة في كيان المسلم، ومؤطرة لسلوكه وحياته.

الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم

وهذا باب عظيم من أبواب السنة، من دخله نال الخير العميم، وحظي بالنعيم المقيم. ومن أبى؛ فهو إلى الشقاوة أميل، وعن الخير أبعد. ولقد حث الشارع على هذا الأدب، وأمر به في مطلع سورة الحجرات، حيث يقول الحق سبحانه وتعالى:" يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله."

والأمر يفيد الوجوب كما هو معلوم عند علماء الأصول، وبالتالي فمن الواجب على المسلم أن يعظم شأن نبيه صلى الله عليه وسلم، ويتأدب معه كأنه حي بين أظهرنا، ويجتهد في اتباعه والاقتداء به. قال صاحب المواهب اللدنية: "فمن الأدب ألا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهي، ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى، ويأذن كما أمر الله بذلك في هذه الآية، وهذا باق إلى يوم القيامة لم يفسخ. فالتقدم بين يدي سنته بعد وفاته، كالتقدم بين يديه في حياته، لا فرق بينهما عند ذي عقل سليم"[75].

وهل ضل أكثر من ضل من المسلمين إلا بسبب التقدم بين يدي سنته صلى الله عليه وسلم، من خلال اتباع الأهواء والخيالات، وما تمليه النفوس من الأوهام والتصورات الخاطئة، وترجيح الآراء على نصوص السنة وأقوال النبي صلى الله عليه وسلم؟!!

---

[75]– شرح العلامة الزرقاني على "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للعلامة القسطلاني الجزء الثامن ص 521 / دار الكتب العلمية بيروت 1417-1996

لقد تجرأ هؤلاء الناس على نبيهم صلى الله عليه وسلم وسنته، فزلت أقدامهم وحبطت أعمالهم وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فكيف يرجو الهدى من أعرض عن علم الهدى؟ بل كيف يستقيم حاله وهو يتخبط في متاهات الأهواء والآراء.

قال الإمام محمد بن قيم الجوزية رحمه الله: "فرأس الأدب معه: كمال التسليم له، والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسميه معقولا. أو يحمله شبهة وشكا، أو يقدم عليه آراء الرجال، وزبالات أذهانهم، فيوحده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان. كما وحد المرسِل سبحانه وتعالى بالعبادة، والخضوع، والذل، والإنابة، والتوكل. فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل، وتوحيد متابعة الرسول، فلا يحاكم إلى غيره، ولا يرضى بحكم غيره، ولا يقف تنفيذ أمره وتصديق خبره على عرضه على قول شيخه وإمامه، وذوي مذهبه وطائفته ومن يعظمه."76

ويدخل أيضا في باب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، تعظيمه وتوقيره، بل لا يتحقق المسلم بصفات الأدب معه صلى الله عليه وسلم، إلا إذا كان معظما وموقرا له. قال تعالى "إنّا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا" (الفتح 9).

---

76 - محمد بن قيم الجوزية؛ "مدارج السالكين"، ج 2، ص 436. دار الجيل، بيروت، د. ت.

والتوقير اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف، والتكريم، والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن حد الوقار.

وذكر القاضي أبو الفضل عياض كلاما جميلا متعلقا بتعظيم الإمام مالك رضي الله عنه، للنبي صلى الله عليه وسلم، أسوقه كاملا بنصه:

" قال مطرف: كان إذا أتى الناس مالكا خرجت إليهم الجارية فتقول لهم: يقول لكم الشيخ تريدون الحديث أو المسائل؟ فإن قالوا المسائل، خرج إليهم وإن قالوا الحديث، دخل مغتسله واغتسل وتطيب، ولبس ثيابا جددا ولبس ساجه، وتعمم ووضع على رأسه رداءه وتلقى له منصة، فيخرج فيجلس عليها وعليه الخشوع، ولا يزال يبخر بالعود، حتى يفرغ من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال غيره؛ ولم يكن يجلس على تلك المنصة إلا إذا حدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن أبي أويس: فقيل لمالك في ذلك، فقال أحب أن أعظم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أحدث به إلا على طهارة متمكنا.

قال وكان يكره أن يحدث في الطريق، أو وهو قائم أو مستعجل. وقال أحب أن أفهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ضرار بن مرة: كانوا يكرهون أن يحدثوا على غير وضوء، ونحوُه عن قتادة.

وكان الأعمش إذا حدث وهو على غير وضوء تيمم.

قال عبد الله بن المبارك: كنت عند مالك وهو يحدثنا؛ فلدغته عقرب ست عشرة مرة وهو يتغير لونه ويصفر ولا يقطع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما فرغ من المجلس وتفرق عنه الناس، قلت له يا أبا عبد الله لقد رأيت منك اليوم عجبا. قال نعم إنما صبرت إجلالا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم". [77]

رضي الله عنك يا شيخنا الإمام مالك وطيب الله ثراك، فقد أحببت النبي صلى الله عليه وسلم، وعظمت كلامه، وتأدبت بأدبه، ونشرت سنته الغراء.

ويدخل في باب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، الثناء عليه بما هو أهله. وأفضل ذلك؛ الصلاة والسلام عليه، قال تعالى: "إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما" (الأحزاب 58). والإكثار من ذكره والتشوق إليه، وتعداد فضائله، وخصائصه، ومعجزاته، ودلائل نبوته، وتعريف الناس بسنته وتعليمهم إياها، وتذكيرهم بمكانته، ومنزلته، وحقوقه، وذكر أخلاقه وصفاته وخلاله، وما كان من أمور دعوته، وسيرته، وغزواته، والتمدح بذلك شعرا ونثرا.

وكذلك التأدب عند ذكره صلى الله عليه وسلم، بأن لا يذكر باسمه مجردا، بل يوصف بالنبوة أو الرسالة، وهذا كما كان أدبا للصحابة

---

77 – الشفا بتعريف حقوق المصطفى، ... المرجع السابق، ج 2، ص 29.

رضي الله عنهم في ندائه، فهو أدب لهم ولغيرهم عند ذكره، فلا يقال: محمد، ولكن: نبي الله أو رسول الله، ونحو ذلك.

كما يدخل في باب الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم، توقير كلامه وحديثه عند سماعه، والوقار عند دراسته. ولعل من ثمرات تعظيم المسلم للرسول صلى الله عليه وسلم، وتوقيره والتأدب معه، حصول محبته في قلبه والإكثار من ذكره والصلاة عليه وهو ما سأتناوله في ما يلي.

محبة الرسول صلى الله عليه وسلم

"لا يعرف التاريخ غير محمد صلى الله عليه وسلم رجلا أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله، كما تنصب المادة في المادة، لتمتزج بها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحول به وتنمو، وإذا هو صلى الله عليه وسلم، وجود سار فيها فما تبرح هذه الإنسانية تنمو به وتتحول.

كان المعنى الآدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن من طول الدهر عليه،... فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد، بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجئ من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها: كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد صلى الله عليه وسلم، سر كمالها"[78].

إذا كان إنسان يحب إنسانا آخر لسبب من الأسباب، أو لأجل مصلحة معينة، فإن العبد المسلم المطيع لا يسعه إلا أن يحب نبيه أشد محبة ويوقره أعظم توقير، لما في ذلك من تحقيق السعادة الدنيوية والأخروية. فلا تتيسر مصالح المسلمين على الوجه المناسب والأكمل، إلا من طريق محبتهم له صلى الله عليه وسلم. ذلك لأن رسولنا الكريم قد بين من خلال حياته ومعاملاته، وسنته الطاهرة، الطريق التي ينبغي أن

---

[78] – مصطفى صادق الرافعي، "وحي القلم"؛ ج1، ص304، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422-2001، ط. 1.

يسلكها المسلم كي ينجو من عذاب الله في الدنيا والآخرة. وهل هناك غاية أجل من هذه الغاية ؟

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم، بصفاته المحمودة، ومحاسنه السامية، وفضائله المتعددة وأخلاقه الرضية، يدعو المسلم الحق لأن يحبه ويجله ويعظمه بقلبه ولسانه.

قال الدكتور محمد دراز: " ومحبة الله ورسوله هي أرقى أنواع هذه المحبة العقلية وأقواها، فمن كان باعث المحبة عنده معرفة ما في المحبوب من كمال ذاتي، فالله تعالى أحق بمحبته؛ إذ الكمال خاصة ذاته، والجمال الأتم ليس إلا لصفاته، والرسول صلى الله عليه وسلم أحق من يتلوه في تلك المحبة؛ لأنه أكرم الخلق عند ربه، وهو ذو الخلق العظيم والهدي القويم، ومن كانت محبته للغير تقاس بمقاس ما يوصله إليه ذلك من الغير من المنافع وما يغدق إليه من الخيرات، فالله تعالى أحق بهذه المحبة أيضا، وإن نعمه علينا تجري مع الأنفس ودقات القلوب، ولا نعمة إلا هو مصدرها، "وما بكم من نعمة فمن الله؛ (النحل53)، "وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها" (النحل 18)، وهذا الرسول الكريم الرؤوف الرحيم هو واسطة النعمة العظمى، إذ هو الذي أخرجنا الله به من الظلمات إلى النور ومن الضلالة إلى الهدى، واستنقذنا به من النار بعد أن كنا على شفا حفرة منها؛ فليس بعد الله أحد أمن علينا منه، ومحبته الحقيقية شعبة من محبة الله" 79

---

[79] المختار من كنوز السنة، ص 344، 345

كما أن محبته واجبة بنص الكتاب؛ قال تعالى: " قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين"80.
فهذه الآية تدل دلالة صريحة على وجوب محبة النبي صلى الله عليه وسلم. بل إن الله سبحانه وتعالى يتوعد الذين يفضلون آباءهم وأبناءهم... ومتاعهم على خالقهم وعلى رسوله، كما ينعتهم بالفسق والعياذ بالله.

ومن علامات محبة العبد المسلم لنبيه صلى الله عليه وسلم؛ طاعته فيما أمر ونهى، والاقتداء به واقتفاء أثره، ومحبة ما جاء به ودعا إليه، وكذا ذكره والشوق إليه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين"[81].

وقال الإمام الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني: " وفي هذا الحديث إيماء إلى فضيلة التفكر، فإن الأحبية المذكورة تعرف به، وذلك أن محبوب الإنسان إما نفسه وإما غيرها. أم نفسه فهو أن يريد دوام بقائها سالمة من الآفات، هذا هو حقيقة المطلوب. وأما غيرها فإذا حقق الأمر فيه فإنما هو بسبب تحصيل نفع ما على وجوهه المختلفة حالا ومآلا.

فإذا تأمل النفع الحاصل له من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم، الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، إما مباشرة وإما بالسبب،

---

80 - سورة التوبة، آية 24

81 - حديث صحيح، ذكره البخاري في كتاب الإيمان

علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات، فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره، ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه."[82]

ولعل من أقوى أسباب جلب محبة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى القلب؛ الإكثار من ذكره والصلاة والسلام عليه، فإن الإنسان كلما أكثر من ذكر محبوبه واستحضاره في قلبه، قوى تعلقه به واشتاق إلى رؤيته والجلوس معه، ولا شئ أقر لعين العبد المسلم الذاكر من رؤية ربه تعالى، ورؤية نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وهكذا إذا أكثر العبد المسلم من ذكر رسوله وحبيبه، والتفكر في أخلاقه وشيمه وسنته، استقر حبه في قلبه، واستولى على كيانه، مما يعينه على التأسي به، والدعوة إلى اتباع سنته.

ولا يفوتني بهذه المناسبة أن أشير بأن قوما ادعوا محبة الرسول صلى الله عليه وسلم بأفواههم، ولم يعملوا بكلامه ولا بأفعاله، بل خالفوا سنته وابتدعوا أذكارا وصلوات، ونظموا أشعارا في مدحه، وراحوا يتباكون ويتغنون بها في مناسبات معينة، وهم يحسبون أنهم بذلك يتقربون إلى الله ورسوله، وشتان بين زفرات الثكلى ودموع النائحة، وبين البكاء والمكاء.

82- أحمد بن حجر العسقلاني؛ "فتح الباري..."، ج1، ص 83. المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1، 1420-2000.

محبة الصحابة واقتفاء أثرهم

لقد أثنى الله سبحانه وتعالى على الصحابة، ورضي عنهم ووعدهم الحسنى، قال تعالى "والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنهم" (التوبة 100). وقال تعالى أيضا "محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا" (الفتح 29). وأثنى سبحانه على المهاجرين والأنصار والذين جاءوا بعدهم حيث قال في سورة الحشر 8-10: " للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم"

"وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حيث قال: "من كان منكم مستنا فليستنن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، قوم اختارهم لصحبة نبيه وإقامة دينه،

فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدي المستقيم" [83]

وروى ابن ماجة عن عوف بن مالك رضي الله عنه: "افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، وسبعون في النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون في النار وواحدة في الجنة، والذي نفس محمد بيده: لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة في الجنة واثنتان وسبعون في النار، قيل يا رسول الله، من هم؟ قال الجماعة" [84]

وروى الترمذي عن عبد الله بن عمرو: "وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلها في النار إلا ملة واحدة: ما أنا عليه وأصحابي" [85]

إن نبينا صلى الله عليه وسلم عندما يقول."ما أنا عليه وأصحابي" يشير إلى أن النجاة يوم القيامة مشروطة ورهينة باتباع سنته، وسنة من اصطفاهم من الخليقة وجعلهم أصحابه، فلا يمكن اتباع الرسول دون اتباع الصحابة، وحبهم واقتفاء آثارهم، لأنهم أفضل من تسنن بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وأحسن من تفقه فيها وعلم مغزاها وغايتها. "ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: "ومن يشاقق الرسول من بعدما تبين له

---

[83] – شرح العقيدة الطحاوية للعلامة ابن أبي الخير الحنفي، صغتها وراجعتها جماعة من العلماء، خرج أحاديثها محمد ناصر الدين الألباني/ بيروت ط 9. 1988/1408، ص 383.

[84] – سنن ابن ماجة (1322/2)

[85] – انظر "تحفة الأحوذي" 7-399-400.

الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا" (النساء 115). وهي تفيد بمفهومها أن كل من اتبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول ولابد، ومن شاقه صلى الله عليه وسلم فقد اتبع غير سبيلهم يقينا، إذا فكل من اتبع غير سبيل المؤمنين، والمؤمنون هم الصحابة أصلا، ومن تبعهم فهو تبع لهم، فقد شاق الرسول صلى الله عليه وسلم، واستحق صلي جهنم في الآخرة"[86]

وبالمعنى نفسه ينطق حديث العرباض بن سارية. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة وإن أمر عليكم عبد حبشي، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة"[87]

وروى أبو داود في سننه عن حذيفة رضي الله عنه، قال: كل عبادة لم يتعبد بها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تتعبدوا بها، فإن الأول لم يدع للآخر مقالا، فاتقوا الله يا معشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم"[88]، نعم كيف يمكن لمسلم أتى بعد الصحابة رضوان الله عليهم بقرون طويلة، وشرع في سن طرق جديدة في السلوك والعبادة، وابتدع أساليب في ذلك لم تكن معهودة لدى الصحابة الكرام، مدعيا أن هذا

---

[86]– أحمد سلام: "ما أنا عليه وأصحابي" دراسة في أسباب افتراق الأمة... . / دار ابن حزم بيروت 1996/1416، ص51.

[87]– رواح الحاكم وقال حديث صحيح.

[88]– الأثر أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة باب 28

الاجتهاد الذي تفتق عليه ذهنه وجادت به قريحته، هو فتح من الله سبحانه ونفحة من نفحاته؟ أليس هذا يعني أن صاحبنا قد استثقل عبادة الصحابة، أو أنه قد اطلع على ما لم يطلعوا عليه، أو فاقهم في أمور وأشياء وأسرار متعلقة بالعبادة والتقرب إلى الله، والحال أن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا ينهلون من مشكاة النبوة، ويتلقون مظاهر العبادة وأسرارها مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، فهم أولى الناس بعد نبيهم بالتفقه فيها، وضبط معالمها ورسم حدودها، والمسلمون تبع لهم في ذلك ولا يسعهم إلا الاقتداء بهم واقتفاء أثرهم.

وبالمناسبة أسوق كلاما للفقيه الأصولي أبي إسحاق الشاطبي يلامس صلب الموضوع، ويعضد قواعده؛ قال رحمه الله في كتابه "الموافقات في أصول الشريعة": "سنة الصحابة رضي الله عنهم سنة يعمل عليها، ويرجع إليها. ومن الدليل على ذلك أمور:

أحدها: ثناء الله عليهم، ومدحهم بالعدالة وما يرجع إليها، كقوله تعالى: "كنتم خير أمة أخرجت للناس" (آل عمران؛110)، وقوله: "وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا" (البقرة؛143)... . ولا يقال: إن هذا عام في الأمة، فلا يختص بالصحابة دون من بعدهم. لأنا نقول: أولا ليس كذلك؛ بناء على أنهم المخاطبون على الخصوص، ولا يدخل معهم من بعدهم إلا بقياس وبدليل آخر.

والثاني: ما جاء في الحديث من الأمر باتباعهم، وأن سنتهم في طلب الاتباع كسنة النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله: " فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين. ."

والثالث: أن جمهور العلماء قدموا الصحابة عند ترجيح الأقاويل، فقد جعل طائفة قول أبي بكر وعمر حجة ودليلا، وبعضهم عد قول الخلفاء الأربعة دليلا، وبعضهم يعد قول الصحابة على الإطلاق حجة ودليلا." [89] يستفاد من كلام العلامة الأصولي أبي إسحاق الشاطبي، أن الصحابة رضوان الله عليهم أعلم الناس بمقاصد الدين والشريعة، وبأصول العقيدة وموازين المصلحة والمفسدة، ولذلك كان كلامهم حجة ودليلا واجتهادهم مرجعا وأصلا في فهم الكتاب والسنة والعمل بهما، كيف لا وهم حفظة السنة ونقلتها وأعلم الناس باللغة وبيانها، وبمنهج رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسير القرآن وتأويله.

والخلاصة أن كتاب الله تعالى وسنة رسوله وسنة الصحابة رضوان الله عليهم "هو الميزان الجامع الذي توزن به العقائد والأصول والأقوال والأفعال والاجتهادات". ومن ثم فإن القدوة الصحيحة التي ينبغي للمسلم أن يتأسى بها ويعض عليها بالنواجذ، هي التي تمثلت في النبي صلى الله عليه وسلم وتجسدت في أصحابه الأطهار الميامين. أما ما سوى ذلك فزيغ وضلال ووهم وتخمين وتلبيس من تلبيس إبليس، وقانا الله شره وكيده آمين والحمد لله رب العالمين.

---

[89] - الموافقات في أصول الشريعة... المرجع السابق، ج 4، ص 55-56-57.

سكون النفس في سكون الليل

ما أقسم الله عز وجل في كتابه بشيء من مخلوقاته إلا وله شأن جليل في عالم الخلق. فلا شك أن الليل وقد أقسم الله به في أكثر من آية؛ "والليل إذا سجى"(الضحى2)،"والليل إذا يسري"(الفجر 4) "والليل إذا يغشى"(الليل1)، يحتوي على أسرار لا يعلم عددها وكنهها إ لا الله.

ثم إنه كثيرا ما ذكر الليل في القرآن مقترنا بلفظ له علاقة بالسكون؛ "هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا" (غافر67)، "فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا" (الأنعام96)، "يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون"(القصص72).... وهذا يدل على مدى لطف الله وعنايته بالإنسان، الذي يجد راحته في السبات بعد كدحه طول النهار. إذ لو كان الزمن كله نهارا لتعذرت الحياة.

غير أن المعنى الروحي لحالة السكون المتأصلة في الليل، هو أهم معنى مشار إليه، والله أعلم، في تلك الآيات، خصوصا إذا ما لوحظ المضمون والبعد الروحي للألفاظ القرآنية: يسكن، سكن، أو سكينة؛ "وجعل منها زوجها ليسكن إليها" (الأعراف189)، "وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم" (التوبة103)، "هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين"(الفتح4).

إن السكون في عالم المادة هو ما يناقض الحركة، وفي عالم النفس هو الطمأنينة والرجوع إلى الأصل، وإن الأرواح قبل الهبوط، لم تعرف

الاضطراب لكونها كانت في عالم الثبات. فالسكون صفة أصلية لها، والاضطراب صفة عرضية. وحنين الإنسان إلى الليل كي يجد الراحة، لا ينفصل عن حنين نفسه إلى ذلك "الليل" الذي تسكن فيه بسكونها إلى أصلها. ويساعد النفس على ذلك تحررها من قيود الحواس أثناء النوم. فبعد أن كانت سجينة حواسها خلال النهار، قدم الليل بسباته وأزاح عنها القيود ومكنها من شيء من الطمأنينة.

ثم إن الإنسان لو لم يكن في سكون الليل أقرب إلى حقيقته وإلى معرفة نفسه وربه ، لما أكد سبحانه على أهمية قيام الليل؛ "ومن الليل فاسجد له وسبحه ليلا طويلا"(الإنسان26)، "يأيها المزمل قم الليل إلا قليلا"(المزمل1)، "إن ناشئة الليل هي أشد وطئا وأقوم قيلا"(المزمل5). ذلك أن الانقطاع عن شواغل الحياة اليومية وضجيجها، والتوجه إلى الله بقلب فارغ في سكون الليل، يخول للعبد أن يتدبر ويحيا لحظات روحية عميقة، تجعله على اتصال قوي ومباشر بحقيقته.

والنهار مسرح جلي لظهور آثار الأسماء الإلهية. والإنسان سواء شعر أم لم يشعر، يظل خلال النهار في انتقال متواصل من حال إلى حال، نتيجة تنوع آثار تلك الأسماء، ونتيجة معاينته لعدد من آيات الله عز وجل. فالمؤمن إذا وقع بصره مثلا على أمر تتجلى فيه الرحمة ذكره بالرحمن، وإن كان القهر متجليا فيه، ذكره بالقهار. وهكذا فإن قلبه دائما معلق بالله، وكل شيء يذكره به وبأسمائه وصفاته.

وتلك الآثار لا تفتأ واقعة على الإنسان، كما أن لطفها به وشدتها عليه، يختلفان بحسب منزلته عند الله. ومهما يكن من أمر، فالمعاناة والمكابدة لا ينفك الإنسان عنهما؛ "لقد خلقنا الإنسان في كبد"(البلد4). أما الليل، فإن هدوءه وسكونه أجلب للسكينة والطمأنينة، وأنفع للعبادة. فلما خيم بظلامه على المخلوقات، وسرت فيها آيته، خشعت وسكنت، وحل الثبات محل الحركة، وخفتت وطأة المكابدة، وذب في نفوس المؤمنين حنين الرجوع، فأقبلوا بوجوههم على الله، وفي الحديث: "ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول ؛ من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له؟"90.

تدبر قصة آدم لعل الله يلهمك بعض أسرارها، وإذا علمت سر الهبوط سهل عليك العروج، إن فاطر السماوات ينزل إلى السماء الدنيا عندما يبقى الثلث الخير من الليل، فينادي وينشر الرحمة والغفران، ويتقرب إلى من هجروا الفراش، وافترشوا بساط الأنس، وذكروه رغبة ورهبة، وأكثروا من الاستغفار استعدادا ليوم تشخص فيه الأبصار. فكم من متزمل راقد ليله لم يقرع النداء أذنيه، وكم من غافل صير ليله نهارا وعصى ربه جهارا. اهجر مضجعك واسهر حينا من ليلك في مناجاة ربك، قبل أن يكشف عن ساق ويتعذر السجود. إن لك في ناشئة الليل نفسا أصفى، وذهنا أوعى، وقلبا أخشع، وصدرا أوسع. فإذا هدأت

[90] حديث صحيح؛ انظر الجامع الصغير؛ ج 2، ص 1357.

الأصوات، وانقطعت الحركات، توجه إلى خالق الكائنات، واجعل في قلبك للرحمات سبيلا؛ عسى أن ينفعك ذلك يوم يأخذ العزيز الظالمين أخذا وبيلا.

وقد حثّ النبي صلى الله عليه وسلم، على قيام الليل، فجاء في فضله من الأحاديث جملة مباركة، منها:

-عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم، وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل.91"

-وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، قال: "أول ما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة، انجفل الناس إليه، فكنت فيمن جاءه، فلمّا تأمّلت وجهه، واستبنته، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، قال: فكان أول ما سمعت من كلامه، أن قال :أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام.92"

-عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "ما من مسلم يبيت طاهرًا، فيتعار من الليل، فيسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلاّ أعطاه الله إياه.93"

---

[91] - رواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن خزيمة في

[92] - رواه الترمذي

[93] - رواه أبو داود، ورواه النسائي، وابن ماجه.

-وعن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: "قام النبي صلى الله عليه وسلم حتى تورمت قدماه، فقيل له: قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. قال :أفلا أكون عبدًا شكورًا.94"

-وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال" :أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، ويصوم يومًا، ويفطر يومًا.95"

-وعن جابر رضي الله عنه، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم، يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة96."

-وعن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "عليكم بقيام الليل، فإنه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربكم، ومكفرة للسيئات، ومنهاة عن الإثم.97"

-وعن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما، قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أيقظ الرجل أهله من الليل فصلّيا، أو صلّى ركعتين جميعًا، كتبا في الذاكرين والذاكرات.98"

---

[94] - رواه البخاري، ومسلم، والنسائي

[95] - رواه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والنسائي، وابن ماجه

[96] - أخرجه مسلم

[97] - رواه الترمذي

[98] - رواه أبو داود.

-وعن سهل بن سعد رضي الله عنهما، قال: "جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزي به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس."[99]

-وعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ أشراف أمتي حملة القرآن، وأصحاب الليل."[100]

-وعن أبي الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "ثلاثة يحبهم الله ويضحك إليهم، ويستبشر بهم، الذي إذا انكشفت فئة قاتل وراءها بنفسه لله عز وجل، فإما أن يقتل، وإما أن ينصره الله عز وجل ويكفيه، فيقول: انظروا إلى عبدي هذا، كيف صبر لي بنفسه؟ والذي له امرأة حسنة، وفراش لين حسن، فيقوم من الليل، فيقول: يذر شهوته ويذكرني، ولو شاء رقد. والذي إذا كان في سفر، وكان معه ركب، فسهروا، ثم هجعوا، فقام من السحر في ضراء وسراء."[101]

-وعن ابن مسعود رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "عجب ربنا تعالى من رجلين، رجل ثار عن وطائه ولحافه من بين أهله وحِبِّه إلى صلاته، فيقول الله جل وعلا: انظروا إلى عبدي، ثار عن فراشه ووطائه من بين حِبِّه وأهله إلى صلاته، رغبةً فيما عندي،

---

99 - رواه الطبراني في الأوسط.

100 - رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي.

101 - رواه الطبراني في الكبير بإسناد حسن.

وشفقة مما عندي، ورجل غزا في سبيل الله، وانهزم أصحابه، وعلم ما عليه في الانهزام، وما له في الرجوع، فرجع حتى يهريق دمه، فيقول الله: انظروا إلى عبدي، رجع رجاء فيما عندي، وشفقة مما عندي، حتى يهريق دمه."[102]

-وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه، قال: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :الرجل من أمتي يقوم من الليل يعالج نفسه إلى الطهور، وعليه عقد، فإذا وضأ يديه انحلت عقدة، وإذا وضأ وجهه انحلت عقدة، وإذا مسح رأسه انحلت عقدة، وإذا وضأ رجليه انحلت عقدة، فيقول الله عز وجل للذين وراء الحجاب: انظروا إلى عبدي هذا يعالج نفسه، يسألني، ما سألني عبدي هذا، فهو له."[103]

-وعن عبد الله بن أبي قيس رضي الله عنه، قال: قالت عائشة رضي الله عنها: "لا تدع قيام الليل؛ فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض، أو كسل، صلى قاعدًا."[104]

- -وعن فضالة بن عبيد، وتميم الداري رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال" :من قرأ عشر آيات في ليلة كتب له قنطار، والقنطار خير من الدنيا وما فيها، فإذا كان يوم القيامة يقول ربُّك عز وجل : اقرأ وارق بكل آية درجة، حتى ينتهي إلى آخر آية معه،

---

[102] - رواه أحمد.

[103] - رواه أحمد، وابن حبان في صحيحه، واللفظ له.

[104] - رواه أبو داود، وابن خزيمة في صحيحه.

يقول الله عز وجل للعبد: اقبض، فيقول العبد بيده: يا رب، أنت أعلم، فيقول بهذه الخلد، وبهذه النعيم.105"

-وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين، ومن قام بمائة آية كتب من القانتين، ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين.106"

-وعن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: "ما من امرئ تكون له صلاة بليل، فيغلبه عليها نوم، إلاّ كتب الله له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة.107"

طبقات السلف في قيام الليل

قال ابن الجوزي: واعلم أن السلف كانوا في قيام الليل على سبع طبقات:

الطبقة الأولى: كانوا يحيون كل الليل، وفيهم من كان يصلي الصبح بوضوء العشاء.

الطبقة الثانية: كانوا يقومون شطر الليل.

---

105 - رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

106 - رواه الطبراني في الكبير والأوسط.

107 - رواه مالك وأبو داود والنسائي.

الطبقة الثالثة: كانوا يقومون ثلث الليل، قال النبي : { أحب الصلاة إلى الله عز وجل صلاة داود؛ كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سُدسه } [متفق عليه].

الطبقة الرابعة: كانوا يقومون سدس الليل أو خمسه.

الطبقة الخامسة: كانوا لا يراعون التقدير، وإنما كان أحدهم يقوم إلى أن يغلبه النوم فينام، فإذا انتبه قام.

الطبقة السادسة: قوم كانوا يصلون من الليل أربع ركعات أو ركعتين.

الطبقة السابعة: قوم يُحيون ما بين العشاءين، ويُعسِّـلون في السحر، فيجمعون بين الطرفين. وفي صحيح مسلم أن النبي قال: { إن في الليل لساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل الله فيها خيراً إلا آتاه، وذلك كل ليلة }.

الأسباب الميسِّرة لقيام الليل

ذكر أبو حامد الغزالي أسباباً ظاهرة وأخرى باطنة ميسرة لقيام الليل:

فأما الأسباب الظاهرة فأربعة أمور:

الأول: ألا يكثر الأكل فيكثر الشرب، فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام.

الثاني: ألا يتعب نفسه بالنهار بما لا فائدة فيه.

الثالث: ألا يترك القيلولة بالنهار فإنها تعين على القيام.

الرابع: ألا يرتكب الأوزار بالنهار فيحرم القيام بالليل.

وأما الأسباب الباطنة فأربعة أمور:

الأول: سلامة القلب عن الحقد على المسلمين، وعن البدع وعن فضول الدنيا.

الثاني: خوف غالب يلزم القلب مع قصر الأمل.

الثالث: أن يعرف فضل قيام الليل.

الرابع: وهو أشرف البواعث؛ الحب لله، وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج ربه.

أبو عبد الرحمن عبد الله الشارف

رمضان المبارك 1436. يوليوز 2015

تطوان المغرب

المصادر والمراجع

1- أبو إسحاق الشاطبي؛ "الموافقات في أصول الشريعة"، دار الكتب العلمية، بيروت، د. ت.

أبو بكر جابر الجزائري؛ "هذا الحبيب محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم "، المكتبة العصرية صيدا، 1420-1999.

2- أبو الحسن على الماوردي؛ "أدب الدنيا والدين" ، دار الفكر، 1415-1995.

3- أبو حامد الغزالي؛ "ميزان العمل"، دار الكتب العلمية بيروت.1409-1989

4-أبو عبد الله الحارث المحاسبي؛ "الرعاية لحقوق الله " دار المعارف.

5-أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي؛ "صيد الخاطر"؛ دار ابن خزيمة ، الرياض 1998.

6-أبو الفرج ابن الجوزي، "صفة الصفوة"، دار الكتب العلمية بيروت، 1419 هـ/1999

7-أبو الفضل عياض السبتي؛ "الشفا بتعريف حقوق المصطفى" بيروت دار الكتب العلمية /1420-2000 .

8-أبو منصور عبد الملك الثعالبي؛ "لباب الآداب" ، المكتبة العصرية، صيدا-بيروت، ط1 1424.

9-أبو محمد علي بن حزم الأندلسي؛ "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" ، دار اللكتب العلمية.

10-د. أحمد أبو حاقة : "البلاغة والتحليل الأدبي"، دار العلم للملايين بيروت، 1988.

11-أحمد بن تيمية؛ "الاستقامة"؛ دار بن حزم بيروت 2000/1420.

12-أحمد بن تيمية؛ "اقتضاء الصراط المستقيم"، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرباط، 1419.

13-أحمد بن تيمية؛ مجموع الفتاوى.د.ت.

14-أحمد بن حجر؛ "تهذيب التهذيب" دار الفكر.

15-أحمد بن خلكان؛ "وفيات الأعيان" دار الفكر.

16-أحمد بن قدامة المقدسي؛ "مختصر منهاج القاصدين"؛ دار الفكر ، بيروت 1422-2002.

17-أحمد الهاشمي : "جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب"، دار الكتب العلمية بيروت، 1983/1403.

18-د.بشير معمرية : "الذكاء الوجداني كمفهوم جديد في علم النفس"، مجلة عالم التربية، المغرب، العدد 16، 2005

19-دافيد باكان؛ "فرويد والتراث الصوفي اليهودي"، ترجمة د. طلال عتريسي، المؤسسة
الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت 1408-1988.

20-سيد قطب "هذا الدين" ط 7 . بيروت دار الشروق. 1982

21-د. سعاد جبر سعيد؛" الذكاء الانفعالي وسيكولوجية الطاقة اللامحدودة" عالم الكتاب الحديث، إربد الأردن، 2008/1429 .

22-سيد قطب، "في ظلال القرآن"، دار الشروق، بيروت، 1417-1996.

23-عبد الفتاح أبو غدة؛ تحقيق "رسالة المسترشدين"، دار السلام، ط. 5، 1409-1988.

24-عبد الرحمن أبو بكر السيوطي: " الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع" تحقيق مصطفى عبد القادر عطا/ دار الكتب العلمية بيروت لبنان 1408/1988/ .

25-د.عبد الله دراز؛ "المختار من كنوز السنة"، دار الأنصار . 1978

26-د. عبد الله الشارف؛ واردات وخواطر إيمانية، طوب بريس ، الرباط المغرب/ 2002

27-محمد بن علي الشوكاني: "أدب الطلب ومنتهى الأرب"، دار ابن حزم 1419-1998.

28-محمد القرطبي؛ الجامع لأحكام القرآن دار الكتب العلمية. ط1/1408-1988.

29-محمد الخضري؛ "إتمام الوفا في سيرة الخلفاء" ، دار الإيمان بيروت.د.ت

30-محمد بن قيم الجوزية؛ "إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان"، تحقيق د. السيد الجميلي، دار ابن زيدون، بيروت، د.ت.

31-محمد بن قيم الجوزية؛ الوابل الصيب من الكلم الطيب لمحمد بن قيم الجوزية دار الكتب العلمية.

32-محمد ابن قيم الجوزية : "مدارج السالكين"، دار الجيل بيروت، د.ت.

33-محمد بن قيم الجوزية؛ "بدائع الفوائد" ، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

34-محمد بن قيم الجوزية؛ "مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة" دار الكتب العلمية، بيروت1998 .

35-محمد بن قيم الجوزية كتاب الفوائد، بيروت دار الكتب العلمية 2003.

36-محمد الزرقاني؛ "شرح العلامة الزرقاني على "المواهب اللدنية بالمنح المحمدية" للعلامة القسطلاني . / دار الكتب العلمية بيروت 1996-1417

37-د. محمد فاروق النبهان؛ "أثر التربية الإسلامية في السلوك الاجتماعي"، كتاب "دعوة الحق"، ، 1420-1999، المغرب.

38-مصطفى صادق الرافعي، "وحي القلم"؛ مؤسسة الرسالة، بيروت، 1422-2001، ط. 1.

فهــــرس الموضوعات

مقدمة...5

الفصل الأول: في المنهج التربوي الإيماني...............11

التربية في التصور الإسلامي............................13

منهج الإسلام في تربية الانفعالات........................31

التخويف النفسي عند الحارث المحاسبي...................47

بين الذكر والإرادة.....................................57

التربية الإيمانية وبناء الذات.............................75

درس تربوي إيماني.....................................79

شيخ التربية ضروري أم غير لازم؟........................83

الفصل الثاني: بين النفس والإيمان.....................99

النفس حجاب..101

مرض الغفلة...107

تزكية النفس وتطهيرها..................................113

الفرح قد يبدد الطاقة النفسية ويوهن الإرادة................121

الإنسان بين اللذات المادية واللذات الروحية...............125

الزمن والوقت من منظور إيماني وذوقي.....................137

العقل بين الزمن النفسي الشهوي والزمن الروحي الفطري......147

الفصل الثالث:في ظلال السنة النبوية..............151

السنة النبوية روح القدوة الصحيحة..............153

الأدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم..............167

محبة الرسول صلى الله عليه وسلم..............173

محبة الصحابة واقتفاء أثرهم..............177

سكون النفس في سكون الليل..............183

مصادر ومراجع..............193

فهرس الموضوعات..............199

من الكتاب:

...يتبين من خلال هذه النصوص التربوية والسلوكية التي يزخر بها تراثنا الإسلامي، أن الإسلام يمتلك أسلوبا رائعا وفريدا في تربية وجدان الإنسان وانفعالاته. وذلك من خلال ما سماه هؤلاء العلماء برياضة النفس، انطلاقا من قوله تعالى: " قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ".

إن انفعالات الإنسان وعواطفه وغرائزه، عندما تنسجم مع دواعي الفطرة السليمة، وتستجيب لنداء الإيمان الباطني المتجذر في أعماق النفس البشرية، يسهل عليها الانقياد لتوجيهات الحق وأوامره، والإصغاء لخطاب الوحي الرباني، فيحصل للنفس الأمن والطمأنينة، وتظفر بالسعادة الحقيقية؛ تلك السعادة التي خطب ودها الفلاسفة والمفكرون على مر العصور، فلم ينعموا بها، ولا تذوقوها، ولا شموا رائحتها، لكونهم كانوا معزولين عن الوحي الإلهي، أو معرضين عنه.

الكاتب :

- الدكتور عبد الله الشارف من مواليد مدينة تطوان - المملكة المغربية - سنة 1954.
- حصل على دكتوراه السلك الثالث في علم الاجتماع من جامعة السوربون بباريس سنة 1984.
- نال دكتوراه الدولة في الدراسات الإسلامية، تخصص فكر وحضارة إسلامية، من كلية الآداب بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان سنة 1999، في موضوع : "الاستغراب في المغرب الأقصى".
- يشتغل بتدريس الفلسفة والفكر الإسلامي بكلية أصول الدين - جامعة القرويين - تطوان.
- درس علم النفس وعلم الاجتماع بكلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبد المالك السعدي-تطوان.
- أستاذ متعاقد بجامعة أم القرى - كلية الدعوة وأصول الدين - مكة المكرمة.
- صدر له من المؤلفات ما يلي :

1 - "الاستغراب في التربية والتعليم بالمغرب"، منشورات كلية الآداب تطوان، مطبعة ألطوبريس، طنجة/ المغرب 2000.

2 - "واردات وخواطر إيمانية"، مطبعة طوب بريس؛ الرباط / المغرب 2002 .

3- "الاستغراب في الفكر المغربي المعاصر"، مطبعة طوب بريس؛ الرباط / المغرب 2003.

4 - "القدوة بين الاتباع والابتداع مع موازنة بين شيخ العلم وشيخ التربية"، منشورات مكتبة سلمى الثقافية، مطبعة الخليج العربي، تطوان /المغرب 2007.

5- "تجربتي الصوفية - مساهمة في فهم الكيان الصوفي -"، منشورات الزمن؛ الرباط. مطبعة النجاح الجديدة؛ الدار البيضاء / المغرب 2011.

6 - "مناظرة صوفية معاصرة"، منشورات الزمن؛ الرباط / المغرب 2014.

7 - "في أدب الرقائق"، مطبعة تطوان - تطوان / المغرب 2015.

- حرر مقالات في مجالات فكرية وتربوية مختلفة، نشرت في صحف ومجلات ورقية والكترونية.

- الموقع الإلكتروني: www.charefab.com - المدونة الإلكترونية: www.charef.net